الأنوار الإلهية

حقيقة أهل البيت عليهم السلام

إبراهيم الأنصاري

الأنوار الإلهية

حقيقة أهل البيت عليهم السلام



تأليف

إبراهيم الأنصاري

تصميـم وخـطـوط
مصطفى بن نخي

تنفيـــذ
حاتم العربي


الأنوار الإلهية

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م


الله نور السموات والأرض
مثل نوره كمشكوة فيها مصباح
المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب
دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة
لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء
ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله
لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال
للناس والله بكل شيء عليم
صدق الله العلي العظيم

تقديم

تجلّت على الكون مذ أوجده الله، نور الولاية، هذا الشعاع المنبثق من النور السّرمدي، نور السماوات والأرض. وهذه الجلوة الوضّاءة هي التي حوّلت الشعاع إلى ظلٍ يستظلُّ تحته عشاق المعرفة لينهلوا من علوم آل محمدﷺ منهلاً عذباً غدقاً، وهي التي حولت الزمن إلى ربيع، فالقلب الذي يهوي آل محمد لايحسّ برمضاء الصيف أو زمهرير الشتاء أو ذبول الخريف، والبلايا كلها تتحطم وتزول أمام مرأى عينيه، لأنها بعين الله، فلم يرَ إلا جميلاً.

في هذا المحراب الأخضر، يكتفي أرباب المعرفة وعشاق الحكمة بمصباح ضئيل من ذلك النور الإلهي الوضّاء ليضيء جوانب قلوبهم فتنفتح عليهم آفاق العلم من شرقها إلى غربها، ويهديهم البارئ سبله فيتلقوا الحكمة من الثقلين وينشرونها بين عباد الله شذاً فواحاً وعطراً أزلياً عبر نسائم الولاء المطلق لخلفاء الرحمن عليهم صلوات الله الملك المنّان.

الولاية أطيب نغمة على مسامع أهل الحق تنشرها ملائكة السماء قبل أن يكررها عباد الله المخلصون من على سطح الأرض، وأعذب أنشودة على سمع وقلب كل مؤمن ينبض فيه الإيمان.

الولاية تمثيل لمعنى الخلود العُلوي، فالذي يتمسك بحبلها، يبني لروحه في السماء ذلك النعيم الأبدي بل الرضوان الرباني «**ورضوان من الله أكبر**».

الولاية أعلى وأبرز مظهر من مظاهر القدس الإلهي، وهي المشكاة المشرقة من القبس السرمدي لاتحيط بها إلا كل معاني الكمال والجمال فإذا اخترتها منهاجاً ونبراساً للحياة، تنقلك في خطوة سريعة من خطى الأزلية لترى الدنيا من آخرها، فلاتجد نعيمها إلا معاني الهلاك، ولا ملذّاتها إلا أشكالاً من الندم، ولا غناها إلا فنوناً من الحسرة، وأما الحياة بمعناها الصحيح فتتلقاها في القرب الحقيقي إلى الخالق وعندئذ سيّان عندك: الألم واللذة، أم المرض والشفاء، أم الفقر والغنى، أم الشدة والرخاء، أم الضراء والسرّاء، لأنك لم تُخلق للعيش في العالم الدنيء بل للدار الآخرة التي هي الحيوان، وأنت في خط مستقيم لا انحناء فيه ولا اعوجاج، تسير إلى تلك الدار الآمنة المطمئنّة، دونما خوف ووجل؛ اللّهم إلا وحشة الطريق وقلّة الزاد، فهذا مايخشاه كل أولياء الله المخلصين، إلا أن الرجاء يزيد في الأمل، ويخفّف وطأة الخوف، ويقرّبك من الاستقرار، ويثبت فيك اليقين، ويشعّ فيك نور الخلاص، ويزيل من جوانح صدرك هواجس العذاب.

ونحن بين ذين وذين (الخوف والرجاء) نعتصم بحبل الله المتين وعروة الولاية الوثقى التي لا انفصام لها، لنذلّل كل الصعوبات، ونجتاح العقبات، ونحطّ في محطّة أهل البيت الكرام فنقتبس منها أنواراً إليهة نستضيء بها ويستضيء معنا من أراد الأمن يوم الفزع الأكبر والسلام عندما تتوفاه الملائكة.

وهذا الكتاب خطوة صغيرة للسير في رحلة النور والاستضاءة من إشراقة الأنوار الإلهيّة يخطها الكاتب بقلبه قبل يراعه، ويقدّمها في

عبارات ممزوجة بالعرفان، يكسوها كساء الإبداع الفني والمعنوي، لعلّ المستمع العزيز، يجد فيه ضالّته من:

حكمة كامنة،
أو حديث شائق،
أو آية محكمة،
أو علم نافع، أو موضوع مهم طالما بحث عنه،
أو شعاع من تلكم الأنوار المحمدية عليهم صلوات الرحمن.

وكلّنا أمل أن يوفق الله الكاتب القدير ليسير قُدماً في إبداعاته المعنويّة، ويهديه الله سبله ليهدي عباد الله ويخرجهم من الظلمات إلى النور، بفضل الله وإذنه، ويطرق أبواب علم الرسول ﷺ فإنه مدينة العلم وعلي وبنوه أبوابه، فمن أراد الحكمة فليأتها من أبوابها.

محمد جواد المهري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على الذين اصطفى محمدّ وآله الطُّهر الميامين.

لكل فكر وعقيدة ثوابت مشتركة وثوابت خاصة. وهكذا فنحن الشيعة لنا مشتركات مع سائر المذاهب الإسلامية... فكلنا نشترك في الأصول الثلاثة (التوحيد - النبوة - المعاد) وكلنا نؤمن بربٍّ واحد وكتاب سماوي واحد وعقيدة سمحة ونبي واحد، ولاجدال ولانقاش في ذلك إلا أننا نمتاز بأصلين آخرين عن غيرنا وهما أصل العدل وأصل الأمامة. فنحن نعتقد بضرورة وجود إمام معصوم من أئمة أهل البيت عليهم السلام في كل زمان -إلى قيام الساعة- والأئمة الإثنا عشر كلّهم من قريش وكلّهم من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، فإن كان إخواننا أهل السنة لايؤمنون بذلك، فليس لهم الاعتراض علينا ذلك لأننا نبني عقائدنا على القرآن الكريم وعلى ما رواه أهل البيت عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ولاشك أن أهل البيت أدرى بما في البيت، ولايلزمنا دائماً أن ندافع عن معتقداتنا لدى سائر المذاهب، فهذه أصولنا ونريد أن نعرّفها لبني جلدتنا ولأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام.

على أتباع العترة الكرام أن يعرفوا ويتقنوا مسألة الإمامة ويتعرفوا على الأبعاد الروحية للأئمة الكرام عليهم السلام، ولاضرورة لمثل هذه المعرفة لدى أتباع المذاهب الأخرى ومع احترامنا لعقائد الآخرين فلابد أن يحترموا عقائدنا.

وعلى الرغم من أن عقائد الشيعة الإمامية مستوحاة من الكتاب والسنة وتتطابق معها تماماً، ونحن نثبت ذلك بالاستضاءة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية المعتبرة، ولكن الأفضل لمن يريد التعرّف عليها أن يناقشنا في أصل موضوع الخلافة والإمامة، وقد أبدع أئمتنا وعلماؤنا في هذا المضمار وبحثوا كل صغيرة وكبيرة من أمور الإمامة ولم يدعوا مجالاً للإعتراض، وهذا الصراط المستقيم يسير قُدُماً دون توقف، وهاهم فطاحل العصر وأمناء الولاية لازالوا يبحثون ويناظرون ويجادلون بالتي هي أحسن ليحيي من حيَّ عن بينة، ولكن ليس مجال بحثنا في هذا الكتاب، مجال المناظرة الكلامية فهذا البحث تعمُّق في موضوع الولاية وتعريف علمي وعرفاني لأئمة الهدى والعترة الطاهرة عليهم السلام. وليس الكتاب تعريفاً بمبادئ الولاية والإمامة ليتسنى لمن ليس له أدنى إطلاع في هذا المجال، الدخول في معتركه والاستفادة من مضامينه.

وعلى هذا الأساس، فإن أصل الاعتماد على أئمة أهل البيت والتشيع لهم أمر مفروغ عنه لدى أتباعهم، فإن الشيعة إذا تمسّكوا بهذا الحبل المتين، فإنهم يطيعون أمر ربهم ونبيهم "**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**" وهذا هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يؤكّد فوز شيعة عليٍّ دون غيرهم وقد نقله كبار علماء السنة ومفسروهم في كتبهم وصحاحهم والآن لسنا بصدد الدفاع عن التشيع فالبحث طويل جاد ولكن نكتفي ببعض الأمثلة، ليكون إخواننا على علم بأننا إذا أتبعنا علياً وأولاده، فلم يكن الدافع التقليد الأعمى، بل نحن على علم وبصيرة من أمرنا، نتشيع لأهل البيت وفقاً لعقيدة راسخة تضمنها كتب القوم. فها هو الهيثمي

يقول في مجمعه نقلاً عن رسول الله ﷺ مخاطباً علياً: «**أنت وشيعتك تردون على الحوض، رواة مرويين، مبيضة وجوهكم، وأن أعداؤك يردون على الحوض ظمأىً مقمحين**» (مجمع الزوائد -ج٩- ص١٣١)

ويذهب صاحب كفاية الطالب إلى أبعد حدّ في مضمار السبق إلى مرضاة الرحمن، حيث ينقل حديثاً مفصلاً عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ جاء فيه:

«... **وإنّ شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي، أشفع لهم ويكونون غداً في الجنة جيراني**» (كفاية الطالب - ص٣٧٩)

ومَن مِّنا لايريد أن يشفع له الرسول ﷺ وأن يكون في الجنة جاراً لأعظم خلق الله وأفضلهم ومَن خُلِقتْ الأفلاك لأجله.

وها هو أبوبكر بن مردويه ينقل باسناده عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال لعلي عليه السلام:

«"... **أنت معي وشيعتك في الجنة**" ثم تلا رسول الله هذه الآية: "**إخواناً على سرر متقابلين**"».

(كشف الغمة جـ ١- ص٣٢٥)

وأما ابن جرير الطبري، ينقل عن ابن عباس في تفسير الآية: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ إن رسول الله ﷺ قال مخاطباً علياً: «**هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين**...».

(تفسير الطبري ج٣٠ - ص١٧١)

(الدر المنثور للسيوطي ج٦ - ص٣٧٩)

ونفس الحديث ينقله كبار العلماء والمفسرين ذيل تفسير الآية المذكورة، مثل الشوكاني في فتح القدير والآلوسي في روح المعاني وابن حجر في الصواعق المحرقة والشبلنجي في نور الأبصار وابن عساكر في تاريخه والقندوزي في ينابيع المودة.

ألا يكفي أن ينقل الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ قال:

«أنا أصل الشجرة وفاطمة فرعها وعليّ لقاحها والحسن والحسين ثمارها وشيعتنا أوراقها».

(مستدرك الحاكم -ج٣- ص١٦٠)

وهناك المئات من الأحاديث التي لاتستوعبها هذه المقدَّمة، تتضمن حقائق واضحة وبراهين ساطعة من المكانة السامية والدرجة الرفيعة لأهل البيت عليهم السلام.

فما أحرانا -نحن المسلمين- أن نلج كهفهم الحصين لنستفيد من كنوزهم ونتعرَّف على علومهم ونستضيء بنورهم ونرتوي من مناهلهم.

فهاهم ذرِّية رسول الله ﷺ، يدعوننا إلى بيوتهم التي "**أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه**"، فلنستجب لدعوتهم لنَحلّ ضيوفاً على موائدهم العامرة، فهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً.

والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل...

إبراهيم الإنصاري
الكويت
٢٥ محرم الحرام ١٤١٩


١
محال مشيئة الله

(١)
مجال مشيئة الله

من جملة الأسئلة المطروحة في مجال الخلق هوالسؤال التالي: هل اللّه سبحانه بإرادته خلق الأشياء بإفاضة الوجود إليها، أم أن الفيض انتشر منه تعالى بنحوجبري من غير إرادة، كانبثاق النور من الشمس؟

أقول في الجواب: لا شكَّ أنَّ جميع الموجودات قد صدرت منه تعالى بالإرادة والقصد لا بالجبر والقهر، وهذا الأمر يحتاج إلى شرحٍ وإيضاح:

النور

لا تَقلُّ أهميَّةُ النور في فهم وتنوير الحقائق المعنوية والمعارف الإلهيَّة عن أهميَّته في تنوير الأجسام والأجرام المادية[١]، فالخلق ليس هوإلاّ إشعاع النور المطلق على الكيانات المكتومة والماهيات المظلمة[٢]. وهذا ما تُبيِّنه آية النور ذات المحتوى العرفاني العميق الذي من أجله سمِّيت السورة بأجمعها بهذا الاسم[٣]. قال تعالى: ﴿**اللّه نُورُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ**...﴾[٤]. وينبغي أن لا نغفل أنَّ هذا ليس إلاّ مثالٌ، فلا نظنَّ بأن اللّه هوبالفعل نور -بالمفهوم الذي نتصوره نحن بذهننا القاصر- كيف وهوخالق النور ومنوّر النور وربّ النور! كم من فرق بين الممثَّل الذي هونور الوجود والمثال الذي هوالنور الحسِّي، إليك بعض الفروق:

الأوَّل: النور الحسي قائم بغيره ونور الوجود قائم بذاته.

توضيح ذلك: إن النور الحسي له ماهية ووجود، وحيث أنَّ الأصالة والحقيقة تعني الوجود[٥] فالنور لا يتحقق بذاته، أي مستقلا عن الوجود، بل هوكغيره من الموجودات فقير إليه، وبفضل الوجود أصبح النور نوراً ومنوَّراً، فلا يمتاز النور على سائر الموجودات من هذه الناحية أعني الفقر الذاتي: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّه وَاللّه هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[٦] بل المستوى الوجودي للنور أقل من سائر الموجودات حيث أنَّه ليس في أفق الإنسان ولا الحيوان ولا النبات، ولعلَّه يعدُّ من الجمادات. والحاصل أنَّ النور الحسِّي هومظهر من مظاهر الوجود (**النور المطلق**) وقائم به، ولولا الفيض الدائم المستمر عليه لما كان له أي اعتبار وكيان، كما سيأتي يومٌ تنعدم فيه الأنوار: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾[٧].

الثاني: إن النور الحسي تظهر به المبصرات فقط وأما المسموعات مثلاً فلا يكشفها النور الحسي، بل حتَّى المبصرات لا تُرى من جميع زواياها وجوانبها من خلال النور الحسِّي بل يمكن رؤيتها على مستوى واحد فقط، وهوسطحها وأمّا عمقها فليس للنور أيَّة سلطة عليها. أمّا نور الوجود فتظهر به المبصرات والمسموعات والمتذوقات والمشمومات والملموسات والمتخيلات والمعقولات وما وراء الحس والعقل، فالوجود هوالذي يُظهرها جميعاً وهوظاهر بنفسه. فالمسموع لا يسمع إلا بالوجود، فلولم يكن الصوت موجوداً لما سُمع، ولولم يكن الطعم موجوداً لما تُذوِّق، فكلُّ شيء -ببركة الوجود- يكون له أثرٌ وانعكاس،

سواء الوجود العيني أوالوجود الذهني[٨].

الثالث: ما أشرنا إليه في الأمر السابق: أنَّ الوجود مسيطر على كل شيء (باطنه وظاهره)، فماذا يبقى إذاً للشيء؟ بما أنَّ النور الحسِّي يسلط ضوءه على ظواهر الأشياء، فتبقى البواطن على حالها خارجة عن نطاق النور، ولكن إذا كان الوجود هوالذي أظهر جميع الأشياء سطوحها وبواطنها، فأيُّ شيء يبقى خارجاً عن مملكته وما ذا بعد الحق (وهوالوجود المطلق) إلاّ الضلال المبين! هوالأوَّل والآخر والظاهر والباطن وهومعكم أينما كنتم وقيام كل شيء به تعالى: ﴿**اللّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[٩] فكلُّ شيءٍ ميِّت وهوالحي، وكلُّ شيء فقير وهوالغني القائم والشاهد والمحيط بكل شيء: «**وبنور وجهك الذي أضاء له كلُّ شيء**»[١٠] وهذا أمر جوهري لابد أن نعرفه حقَّ المعرفة ونصل إليه بالشهود والعرفان حيث أنَّ له دوراً رئيسياً في أفكارنا وأعمالنا وأخلاقنا، فينبغي أن نُدرك معنى قوله تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾[١١] والمعتقد بهذه الحقيقة لن يصدر منه أقلّ الذنوب، كيف وهويعلم بأنَّ اللّه له حضور تكويني في كلِّ ما هوموجود! قال تعالى:

﴿**أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّه يَرَى**﴾[١٢].

الرابع: إن النور الحسي لا شعور له ونور الوجود ذوشعور بل هوعين الشعور والإدراك، كيف والشعور لا يكون له أيُّ اعتبار إلاّ بالوجود! ومن هنا تعرف السرّ في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّه يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[١٣] وقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّه مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾[١٤] فكلمة (**ما**) تشمل كافة الموجودات حتَّى الجمادات، وأوضح من ذلك قوله

تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١٥).

فالأشياء جميعاً لا تسبِّح فحسب، بل تسبِّح حين الحمد فتنـزِّه وتحمد وتلاحظ الجلال والجمال الإلهي، وهذه حقيقة التوحيد(١٦).

الخامس: إنَّ إشعاع النور ليس إرادياً بل هوجبري محض، فالشمس لا تَنشر النـور وترسله إلى الأجرام بإرادتها، بل بما أنَّها شمس فهي ذات إشعاع، وذلك لأنَّ النور الحسي ليس من جملة الموجودات العالية كالإنسان والملائكة، بل شأنه شأن الجمـادات التي لا إرادة لها، بل ربَّما يكون النور في مرحلة أدنى من الجمادات كما مرَّ. فلوأثبتنا أنَّه ليس بجسم، فهذا لا يعني أنَّه مُجرَّدٌ روحاني، كيف ولا إرادة له! فلوأثبت علماء الطبيعة أن النور لا يوزن وليس له مكان، فهذا لا يعني أنَّه مجـردٌ! وأمّا اللّه فهـو: ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١٧) أي وجودهما فظهرت باللّه السماواتُ والأرضُ ولكن بالمشيئة والإرادة، إذ هوخالق الإرادة وخالق الإنسان المريد (وفاقد الشيء لا يُعطيه) فالإنسان يتصوَّر، فيُصدِّق، فيرغب، فيشتاق، فيطلب، فيريد، فيفعل. الإرادة إذاً هي مظهر من مظاهر الوجود، وكما أنَّه بالوجود أصبح الجمالُ جمـالاً والقدرةُ قدرةً والعلم علماً، فبالوجود أيضاً أصبحت الإرادةُ إرادةً، فاللّه سبحانه هوالجميل والقدير والعليم على الإطلاق وكل جمال وقدرة وعلم منه تعالى، وهوأيضاً المريد على الإطلاق، وكلُّ إرادة مهما كانت، هي مظهر من إرادته جلّ شأنه. فهوتعالى أرادَ، فخلق الأشياء، وإرادتُه سبحانه وتعالى عينُ فعله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١٨)

ليس هناك فاصل زمني بين "**كنْ**" وبين "**يكون**" فمتى ما أراد اللّه أن يكون يتحقق الشيء بلا فاصل زمني. إنَّ صدور الأشياء منه تعالى ليس قهرياً بل هواختياريٌّ، ولكنَّ اللّه تعالى بكرمه ولطفه وسعة رحمته لا يمنع الموجودات من فيضه، رغم تمكّنه من المنع: «**يا من أعطى من سأله... يا من أعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه**»(١٩).

السادس: إن النور الحسي له أفول وزوال وله ثانٍ، ونور الوجود لا أفول له ولا زوال ولا ثان لـه ولا مقابل، ووحدتـه ليست عددية، فهوليس واحداً بل هوأحدٌ، والأحد لا يكون إلا الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال تعالى:

﴿**قُلْ هُوَ اللّه أَحَدٌ، اللّه الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ**﴾(٢٠) فمع اجتماع هذه الصفات يكون أحداً، فإذا استوعب كلَّ شيء بحيث لا يخلومنه شيء فلا يوجد مجال للثاني، وما هوالثاني في قبال الوجود المطلـق؟ العدم! أم...!

أول ماخلـق الله المشيئة

على ضوء ما ذكرنا، يمكنك أن تتعرَّف على أوَّل ما خلق اللّه أوأوَّل ما ظهر منه تعالى وهوالمشيئة والإرادة، كما ورد في الحديث: علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمَير عن عُمر بن أذينة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**خَلَقَ اللّه المشيئة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيئة**»(٢١) فهوشاء فخلق، وإنَّما سمِّيت الأشياء أشياءً فلأنَّها مظاهر مشيئته تعالى وتجلِّي إرادته.

عالم الأمر

وهاهنا سؤال يطرح نفسه وهو: في أيِّ شيء تجلَّت وتتجلَّى[٢٢] المشيئةُ الإلهيَّة التي بها خلقَ اللّه الأشياء؟ ومن هُمْ محال مشيئته تعالى؟ هل المشيئة الأولى التي خلق اللّه بها الأشياء وأظهر بها سائر الموجودات مخلوقة كسائر المخلوقات، بمعنى أنَّ المشيئة أيضاً ظهرت بالمشيئة؟

أقـول:

مـن الواضح أنَّ الذي هومظهر نفس المشيئة، لا يكون شيئاً كسـائر الأشيـاء، بل له رتبة أعلى وأسمى منـها حيث به خُلقت الأشيـاء وأصبح هوواسطة لانتقال فيض الوجود إلى الأشياء الأخرى، فهورابط بين الأشياء وبين اللّه سبحانه وتعالى، إذ لوقلنا بأن المشيئة خلـقت بالمشيئة، سوف ننقل الكلام إلى المشيئة الأولى ونقول: هـل اللّه بمشيئته شاء أن يخلق؟ ولا تتوقَّف هذه السلسلة أصلاً والتسلسل باطل بالبـداهة[٢٣]، إذاً المشيئة لم تُخلـق كسـائر الأشيـاء، بل خَلَق اللّه الأشياء بالمشيئة وخلق المشيئة بنفسها، والمشيئة من عالم الأمر الذي ورد في قوله تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[٢٤].

فما هومحال مشيئته تعالى؟

بطبيعة الحال هوأفضل ما خلق اللّه، وهوالإنسان الكامل الذي هوالنور الأوَّل.

وعن الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عليه السلام: «... **قلوبنا أوعية لمشية اللّه عزّ وجلَّ...**»[٢٥] وقـال الإمـام عليه السلام في كتابه القيِّم مصباح الهداية

إلى الخلافة والولاية: "مطلَعٌ: إن الأحاديث الواردة عن أصحاب الوحي والتنزيل في بدء خلقهم عليهم السلام وطينة أرواحهم، وأنّ أول الخلق روح رسول اللّه وعليّ صلى اللّه عليهما وآلهما أوأرواحهم، إشارةٌ إلى تعيّن روحانيتهم التي هي المشيئة المطلقة والرحمة الواسعة تعيّناً عقليّاً، لأنّ أوَّل الظهور هوأرواحهم عليهم السلام. والتعبير بالخلق لا يناسب ذلك فإنَّ مقام المشيئة لم يكن من الخلق في شيءٍ، بل هوالأمر المشار إليه بقوله تعالى:

﴿ألا له الخلق والأمر﴾ وإن يُطلق عليه الخلق أيضا، كما ورد منهم "خلق اللّه الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها" وهذا الحديث الشريف أيضا من الأدلة على كون المشيئة المطلقة فوق التعينات الخلقية من العقل وما دونه"(٢٦). أقول: ولعلَّ في قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾**(٢٧) إشارة إلى ذلك، فهم عليهم السلام محال مشيئة اللّه، وهم باب اللّه الذي منه يُؤتى، والسبب المتصل بين الأرض والسماء، وهم النور الأوَّل الذي كان في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهَّرة، والذي منَّ اللّه علينا بهم، فجعلهم في بيوت أذن اللّه أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه. جاء في الحديث: «**عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام يا ابن رسول اللّه لم سميت الزهراء زهراء؟ فقال: لأنَّها تزهر لأمير المؤمنين عليه السلام في النهار ثلاث مرات بالنورة إلى أن قال: فلم يزل ذلك النور في وجهها حتّى ولد الحسين عليه السلام، فهويتقلب في وجوهنا إلى يوم القيامة في الأئمة منا أهل البيت إمام بعد إمام**»(٢٨) وقال الإمام رحمه الله: "**لواتَّحد أفق الإنسان الكامل مع المشيئة المطلقة وأصبحت روحانيته عين**

مقام الظهور الفعلي للحق تعالى، ففي هذا الحال سوف ينظر الحق تعالى به ويسمع به ويبطش به، فهوالإرادة النافذة للحق والمشيئة الكاملة والعلم الفعلي، وقد ورد في الحديث، عليٌّ عينُ اللّه وسمعُ اللّه وجنبُ اللّه"(٢٩) وقال في بيان شخصيَّة النبي الأكرم ﷺ: "وهوالمشيئة المعبَّر عنه بالفيض المقدس والرحمة الواسعة والاسم الأعظم والولاية المطلقة المحمدية أوالمقام العلوي، وهواللواء الذي آدم ومن دونه تحته والمشار إليه بقوله: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين أوبين الجسد والروح" أي لا روح ولا جسد، وهوالعروة الوثقى والحبل الممدود بين سماء الإلهية وأراضي الخلقية، وفي دعاء الندبة قوله عليه السلام: "أين باب اللّه الذي منه يؤتى، أين وجه اللّه الذي يتوجه إليه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء." وفي الكافي عن المفضّل قال: قلت: لأبي عبداللّه عليه السلام: كيف كنتم حيث كنتم في الأظلّة فقال: يا مفضل كنّا عند ربّنا ليس عنده أحد غيرنا في ظُلّة خضراء نسبحه ونقدِّسه ونهلِّله ونمجِّده وما من ملكٍ مقرب ولا ذي روح غيرنا، حتى بدا له في خلق الأشياء، فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة ويرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا". والأخبار من طريق أهل البيت عليهم السلام بهذا المضمون كثيرة"(٣٠).

وهذه المعرفة هي عين التوحيد لأنَّه من خلالها يمكن ربط الأرض بالسماء، والمخلوق بالخالق الواحد الأحد، ويتحقق التناسب والتسانخ والانسجام بين العلة والمعلول. ثمَّ إنَّ أسمائهم هي الأسماء التي علَّمها اللّه لآدم حيث يقول:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[٣١] والمراد من الأسماء هي التي كانت لها علاقة بمقام الخلافة الإلهيّة المتمثلة في خصوص المسميات المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾[٣٢].

أنظُر إلى هذا التعبير وتأمّل في كلمة "ثمَّ" فإنها قد فصَّلتْ بين جميعِ الأسماء وبين التّي عُرِضَتْ على الملائكة وتأمَّل أيضاً في ضمير "هم" فالمقصود منه المسمَّيات التِّي تمتلك التعقُّلَ وإلا لكان التعبير الصحيح هو "عَرضَها" لا "عَرضَهُم". وأصرح منه قوله تعالى:

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٣].

ولا يخفى أنَّ كلمة هؤلاء تدلُّ على حضورهم بعينهم آنذاك وهم بعرشه محدقين. ولعلَّ قوله عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة وأسماؤكم في الأسماء إشارة إلى هذه الحقيقة، حيث كانت أسماؤهم في الأسماء التِّي علَّمها اللّه آدم عليه السلام. وقد ورد في الحديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك وأيضاً لولاك لما خلقت آدم»[٣٤].

وفي زيارة رسول اللّه صلى الله عليه وآله التي نقلها كلٌّ من الشيخ المفيد والسيد والشهيد قدّس اللّه أسرارهم:

«أوَّل النبيين ميثاقاً، وآخرهم مبعثاً، الذي غمسته في بحر الفضيلة والمنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة والمرتبة الخطيرة فأودعته الأصلاب الطاهرة ونقلته منها إلى الأرحام المطهرة...»[٣٥].

وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثاً في كتابنا دولة المهدي المنتظر[٣٦].

المراجع والتوضيحات:

١ - هذا لاينافي إطلاق الغيب على الله تعالى، بل هو غيب الغيوب لأنَّ الأشياء الخفية ربَّما تكون خفية لشدة ظلمتها، وربما تكون خفية لشدة نورها وظهورها، فالشدة في كل من النور والظلمة تؤدِّي إلى خفاء الشيء، ألا ترى أنَّك لاتشاهد الشيء إذا سُلط عليه نورٌ شديد، فالله سبحانه وتعالى اختفى وغاب فلشدة نوره فهو نور الأنوار يقول المحقق السبزواري "ره" : يامن هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره.

٢ - الماهية هي ماتقال في جواب ماهو؟ فهي مصدر صناعي ويطلق على شيئية الشيء في قبال وجوده.

٣ - وهي السورة الوحيدة التي بدأت بكلمة «سورةٌ»، ولايخفى عليك السر في الابتداء بالنكرة الدال على العظمة ومن هنا قال تعالى: "أنزلناها" أي أنَّها مع علوِّ شانها وسموِّ مرتبتها عندنا، أنزلناها فصارت ضمن المصحف.

٤ - النور ٣٥.

٥ - قد ثبت ذلك في الحكمة بأدلّة قطعيَّة فراجع.

٦ - فاطر ١٥.

٧ - التكوير ١، ٢.

٨ - وهذا التقسيم من أهم تقسيمات الوجود لدى الحكماء، فالآثار الذهنية للشيء هي بعد إيجاد صورته في الذهن، فالاثر إذاً راجع إلى الوجود كما لو تخيل الإنسان شيئاً يؤدِّي إلى لذةٍ أو حزنٍ.

٩ - البقرة ٢٥٥.

١٠ - دعاء كميل، وقد وردت في هذا المجال آيات وأحاديث كثيرة.

١١ - المجادلة ٧.

١٢ - العلق ١٣، ١٤.

١٣ - الرعد ١٥.

١٤ - الجمعة ١.

١٥ - الإسراء ٤٤.

١٦ - قد فصّلنا ذلك في تعليقنا على شرح دعاء السحر.

١٧ - النور ٣٥.

١٨ - يس ٨٢.

١٩ - الكافي ج٢، ص٥٨٤.

٢٠ - الإخلاص ٢- ٤.

٢١ - الكافي، ج١، ص١١٠.

٢٢ - وذلك لأنَّ الخلق مستمرٌ غير متوقّف فالله دائماً يريد فيخلق.

٢٣ - لإثبات بطلان التسلسل قد ذكر الحكماء أموراً نشير إلى أثنتين منها:

أ: لو فصلنا حلقاتٍ من السلسلة ثم قايَسناها مع السلسلة الأولى (الكاملة) فهل الناقصة تساوي الكاملة؟ فإن كانتا متساويتين فسوف تكون الناقصة ليست بناقصة في آن واحد، والكاملة ليست بكاملة (وهذا هو التناقض المحال). وأمّا لو قلنا بأنَّهما حينئذٍ غير متساويتين فسوف يثبت المطلوب وهو أنّ السلسلة من أوَّل الأمر لم تكن مستمرَّة إلى مالا نهاية بل كانت محدودة.

ب: إنَّ وجود المعلول على أيٍّ مشروط بوجود علته، فلو استمرَّت المشروطية والربط بتسلسل العلل والمعلولات فسوف لن يتواجد حتىَّ

شيء واحد أصلاً، وذلك لأنَّ الرابط يفتقر في وجوده إلى غير الرابط فوجود الأشياء وتحقُّقها عيناً دليلٌ على عدم اشتراطها إلى ما لانهاية.

٢٤ - الأعراف ٥٤.

٢٥ - كشف الغمة، ج٢، ص٤٩٩. وبحار الأنوار، ج٩، ص٣٢١.

٢٦ - مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، ص١٠٥، والحديث في الكافي، ج١، ص٤٤١.

٢٧ - السجدة ٢٤.

٢٨ - علل الشرائع، ص١٨٠، وبحار الأنوار ج٤٣، ص١١.

٢٩ - توحيد الصدوق، ص١٦٤.

٣٠ - شرح دعاء السحر، ص١٠.

٣١ - البقرة ٣١.

٣٢ - البقرة ٣١.

٣٣ - البقرة ٣١.

٢٤ - المناقب، ج١، ص٢١٧. بحار الأنوار، ج١٦، ص٤٠٦. بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٠.

٣٥ - الإقبال، ص٦٠٦. بحار الأنوار، ج١٠٠، ص١٨٣.

٣٦ - دولة المهدي المنتظر، ص١٣-٤٥.

٢

نورٌ على نورٍ

(٢)
نور على نور

النظام الأحسن

من الأبحاث التي تطرَّق إليها الحكماء، هو الحديث عن النظام الإلهي، وأنَّه هو النظام الأتم الأكمل الأحسن، وذلك لأنَّ فيضه سبحانه دائم، فمن المستحيل تصوّر النقصان في فيوضاته على العالمين. وهذا الأمر غير خاضع للزمان والمكان مطلقاً، فنظام الكون دائماً هو الأحسن، وعليه يكون أحسن ما خلق هو الأوَّل وهو الآخر، وبما أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أحسن الخلق وهو الأفضل من جميع الأنبياء -كما ثبت في محلِّه -فهو أوَّل ما خلق اللّه.

وجميع الأنوار إنّما هي إشعاع لذلك النور الأوَّل المنبثق من النور المطلق، فلا بد من نور شديد به تظهر سائر الأنوار، وإلا سوف ينقطع الفيض الإلهي، فالجميل المطلق قد ظهر بجماله في أحسن موجود كما أن الكريم المطلق تجلى وظهر بكرمه والقدير المطلق ظهر بقدرته، فالذي هو مظهر لتلك الصفات هو وجه اللّه، ولابد أن يكون موجوداً في كلِّ زمان وهو حجَّة زمانه، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لو خلت الأرض ساعة واحدة من حجَّة للّه لساخت بأهلها»[1].

وقال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾[٢].

والمقصود من الوجه هو الفيوضات التي تمثِّل الواجهة والمرآة الإلهية، والضمير في "ربِّك" إشارة إلى خصوص ربِّ الرسول ﷺ كإنسان جامع للكمالات، ومن هنا اتُّصف الربّ بذي الجلال والإكرام.

وفي دعاء الندبة:

« **أين باب اللّه الذي منه يُؤتى، أين وجه اللّه الذي يتوجَّه إليه الأولياء**»[٣].

ولتوضيح هذه الحقيقة نذكر مثالاً:

لو فرضنا أنَّ شلاّلا ينزل من جبلٍ عالٍ، فمن الطبيعي أن يمرَّ من خلال البحر ثمَّ الشط ثمَّ الأنهار فالجداول، وكلّ واحدة منها هي واسطة الفيض إلى ما دونها. حينئذٍ نتساءل: هل بإمكان الإنسان أن يشرب الماء من غير التوسُّل بتلك الوسائط؟

لو حاول ذلك وهو غير قابل لهلك، لأنَّ الوعاء الذي يمتلكه لايستوعب الماء، فيبقى عطشاناً وهو يجاور الماء. فالحل الوحيد لمثل هذا الإنسان هو الإبتعاد من المصدر والتقرُّب إلى وسائط الفيض، جاء في الدعاء:

«**إنّا توجَّهنا واستشفعنا وتوسَّلنا بك إلى اللّه وقدَّمناك بين يدي حاجاتنا، يا وجيهاً عند اللّه اشفع لنا عند اللّه**»[٤].

وهذه الحقيقة قد بيِّنت في قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللّه﴾(٥).

فالجبل مهما عظم فهو جماد لا يستوعب كلام اللّه تعالى، فأين التراب وربِّ الأرباب، ومن هنا يقول سبحانه:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٦).

قال صدر الحكماء والمتألّهين وشيخ العرفاء الكاملين في الأسفار: "**اعلم أيّها المسكين، أنّ هذا القرآن أُنزل من الحق إلى الخلق مع ألف حجاب لأجل ضعفاء عيون القلوب وأخافيش أبصار البصائر، فلو فرض أنّ باء بسم اللّه مع عظمته التي كانت له في اللّوح نزل إلى العرش لذاب واضمحلّ الكرسي، فكيف إلى السماء الدنيا. وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللّه﴾(٧) إشارة إلى هذا المعنى**"(٨).

و تعليقاً على ذلك قال الإمام ﷺ: "**وهذا الكلام صادر عن معدن المعرفة، مأخوذ عن مشكاة الوحي والنبوة**".

أقول: ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿**هُوَ اللّه الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللّه الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللّه الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(٩).

والجدير بالذكر أنَّها آيات ثلاثة وكلٍّ واحدة منها تبدأ بـ "هو اللّه" .

قال الإمام ﷺ: "**الآية الشريفة الأولى مشيرة إلى أسماء الصفات، والآية الثانية إلى أسماء الذات، والآية الثالثة إلى أسماء الأفعال**" .

هذا: ولاحظ قوله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(١٠) كلُّ هذا السعي لماذا؟

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(١١).

فهل بإمكاننا -نحن القُصَّر- أن نصل إلى شيء من مستوى الرسول الاكرم ﷺ !

ومن المناسب هنا الحديث عن آية النور ذات المحتوى العرفاني العميق، قال تعالى:

﴿اللّه نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٢).

أقـــول:

ظاهر المثال هو نوع من التشبيه لنور اللّه -جلّ شأنه- كمشكاة فيها مصباح وهو سراج والمصباح في قنديل من الزجاج وهو مضيء متلألئ

كأنَّه كوكب درِّي، وهذا المصباح يتوقَّد من شجرة مباركة هي شجرة الزيتون المتكاثر نفعها والشجرة لبركتها وردت مبهمة، كما أنَّ الزيتونة لفخامة شأنها جاءت بدلاً من الشجرة، وهي لا شرقية، ولا غربية، تسطع الشمس عليها بنحو متواصل من غير انقطاع، كالتّي على قمَّة جبل، أو صحراء واسعة، فان ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى. أو أنَّهما إشارة إلى أرض الشام الواقعة في وسط المعمورة لا شرقها ولا غربها، فإن زيتونه أجود الزيتون أو أنَّه لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا مقناة تغيب عنها دائماً فيتركها نياً وفي الحديث:

«لا خير في شجرة ولا في نبات في مقناة ولا خير فيها في مضحى»

يكاد زيتهـــا يضيء ولو لم تمسسه نار، وذلك لتلألؤه وبياضه الشديد. فجميع تلك الأمور ضاعفت في النور ولم تنقص منه أصلاً، فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت والقنديل وضبط المشكاة، فهو نور على نور وإن كان النور حقيقةً من المعدن، كما جاء في المناجاة الشعبانية:

«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك».

ثمَّ عند التأمل في الأحاديث الشريفة التي وردت في تفسير الآية المباركة والآية التي بعدها، وملاحظة القرائن المحيطة بها وسياق الآيات، نرى أنَّها تنوِّه إلى حقيقة واحدة وهي:

إنَّ اللّه هو نور السماوات والأرض، وإنَّ هذا ليس هو إلاّ مثالٌ يشير إلى

حقائق أخرى كما أشرنا سابقاً في بيان الفروق بين النور الحسِّي والحقيقي(١٣).

فالأحاديث على اختلافها الظاهري تؤكِّد على أنَّ المصباح هو المصطفى ﷺ، فقد جاء في الحديث التالي:

«عن عبد اللّه بن جندب قال: كتبت إلى أبي الحسن الرضا صلوات اللّه عليه أسأله عن تفسير هذه الآية، فكتب إلي الجواب: أما بعد فان محمدا ﷺ كان أمين اللّه في خلقه، فلما قبض النبي كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء اللّه في أرضه... مثلنا في كتاب اللّه عزّ وجل "كمثل مشكوة "المشكوة في القنديل، فنحن "المشكوة فيها مصباح المصباح " محمد ﷺ»(١٤).

وكانوا عليهم السلام يستشهدون بآيات أخرى تعزيزاً لهذا المعنى، فقد ورد في تفسير قوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّه بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾(١٥).

و قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا... ﴾(١٦).

وقوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾(١٧).

«على بن محمد عن على بن العباس عن على بن حماد عن عمرو بن

شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال في تفسير الآية المباركة: أضاءت الأرض بنور محمد كما تضيء الشمس، فضرب الله مثل محمد صلى الله عليه وآله الشمس ومثل الوصي القمر وهو قوله عزّ وجلّ: "جعل الشمس ضياء والقمر نورا" وقوله: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون"»(١٨).

و الجدير بالذكر ما ورد في تفسير الآيتين المباركتين وهما:

قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١٩).

و قوله:

﴿فَآمِنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللّه بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢٠).

«علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذي يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾... إلى قوله... ﴿فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ قال: النور في هذا الموضع عليٌ أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام»(٢١).

«أحمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن على بن اسباط

والحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن أبي خالد الكابلي، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه تعالى: ﴿فآمنوا باللّه ورسوله والنّور الّذي أنزلنا﴾ فقال: يا أبا خالد النور -و اللّه- الأئمة عليهم السلام، يا أبا خالد لنورُ الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين ويحجب اللّه نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها»(٢٢).

وقال تعالى في شأن رسوله صلى الله عليه وآله:

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللّه بِإِذْنِه وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(٢٣).

وأمّا كلام القوم في تفسير النور مختلفة إلا أنَّها تؤول إلى شيء واحد:

فقال ابن عباس: إن المقصود من الآية أنَّ مثل نور اللّه الذي يهدي به المؤمن.

وقال سعيد بن جبير: النور محمّد كأنّه قال: مثل محمد رسول اللّه.

وقال بعضهم: مثل هذا القرآن في القلب كمشكاة.

وقيل: مثل نوره وهو طاعته.

وقيل: هو مثل ضُرب لقلب المؤمن.

أقول: ولا تعارض بين الأحاديث والأقوال المختلفة في هذا المجال، بل يمكن الجمع بينها، فنور اللّه ليس هو إلا رسوله وهو متّحد مع القرآن.

ثمَّ: عندما نتأمَّل في الوسائط التي بيَّنتها الآية المباركة، وهي المشكاة، والمصباح، والزجاجة، سوف نعرف أنَّها لا تمنع من إشعاع النور أصلاً، بل من خلالها يتمكَّن الإنسان من معرفة ذلك النور الوضّاء الذي هو نوَّر السماوات والأرض، أعني نور اللّه المطلق، فلا مجال للإنسان أن يشاهد النور الإلهي من غير الانطلاق منها، فهل للخفاش أن يوصف الشمس المضيئة؟

فما هو الحلّ إذاً؟ الحلّ إنَّما هو التوسُّل بتلك الوسائط والتقرُّب إليها كما مرَّ. ومما ينبغي ذكره أنَّه تعالى بعد ذكر تلك الوسائط قال:

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّه لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(٢٤).

فمعرفة الأنوار الإلهيَّة ليست من السهل لأيِّ إنسان، بل تفتقر إلى قابلية وتهيُّأ، وهذا لا يحصل إلا بمشيئة اللّه سبحانه. ولعلَّ هذا المقطع من الآية إشارة إلى ذلك النور الإلهي الغائب بقيَّة اللّه في الأرضين الحجَّة بن الحسن المهدي عجل الله فرجه في خصوص عصر غيبته، حيث أنَّ النور في الآية أضيف إلى الضمير الغائب أعني "لِنُورِه" وأخفى اسم من أسماءه تعالى هو الهاء، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾(٢٥) يشير إلى عصر ظهوره صلوات اللّه وسلامه عليه، حينما ينتشر ذلك النور فينوِّر الأرض، وقد ورد في هذا المجال حديث طويل، عن محمد بن أبي عبد اللّه عن جعفر بن محمد عن القاسم بن الربيع عن صباح المزني عن المفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه عليه السلام (حين ظهور المهدي عجل الله فرجه):

«يستغني الناس عن ضوء الشمس وور القمر ويجتزؤون بنور الإمام»(٢٦).

وفي الزيارة الجامعة الكبيرة:

«**وأشرقت الأرض بنوركم**»(٢٧).

ولا يخفى لطافة التعبير في الآية حيث أضيف النور إلى الربّ، في قوله: "بِنُورِ رَبِّهَا" وهو أجلى وأظهر أسمائه تعالى. وفي حديث آخر: «**الكوكبُ الدرّي القائمُ المنتظر عليه السلام، الذي يملأ الأرض عدلاً**»(٢٨).

وعن ابن محبوب عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:

«**قال لي: لا بدَّ من فتنة صمّاء صيلم، يسقط فيها كل بطانة ووليجة، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي يبكى عليه أهل السماء وأهل الأرض وكلّ حريٍّ وحرّان وكلّ حزين لهفان، ثم قال: بأبي وأمي سميّ جدي وشبيهي وشبيه موسى بن عمران عليه السلام، عليه جيوبُ النور تتوقَّد بشعاع ضياء القدس**»(٢٩).

ونفس النص قد صدر عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله(٣٠) ثمَّ قال تعالى:

﴿**فِي بُيُوت أَذنَ اللّه أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّه وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾(٣١).

فتلك الأنوار إنَّما هي في بيوت، فما هي تلك البيوت التي احتملت

الأنوار المعنويَّة؟ هذا ما يجيب عنه أئمتنا عليهم السلام معتمدين على الآية نفسها.

فالقرآن يشتمل على ظاهر وباطن وقد أشار سبحانه إلى باطنه بقوله:

﴿**وما يعلم تأويله إلا اللّه**﴾[٣٢] فالظاهر ورود هذه الآية في المساجد. فالمسجد له الأهمية القصوى في الإسلام، لأنه مكان أداء أقدس الأعمال ألا وهو الصلاة. فالمسجد في ظاهره ليس إلا عبارة عن بناء مكوَّن من التراب والصخر والحديد وكلّها جمادات، إلا أنه لإضافته إلى اسم الربّ تعالى، يختلف شأنه عن سائر البيوت في الدنيا والآخرة، كما تؤكِّد على ذلك الآيات والأحاديث.

بيت النبوة والإمامة

وللَّه أيضاً بيوت ليست من الصخر والطين والحديد، بل إنها من العقل والروح والقلب فهي مختلفة عن سائر البيوت. إن المسجد بيتٌ لإقامة الصلاة، أما بيت العقل والروح والقلب فسكّانه المعرفة والعلم باللّه. وهذا البيت الروحاني هو المقصود الباطني لهذه الآية. فالقلب هو المسجد وبيت اللّه الحقيقي، وهو مسكن للمعرفة والتوحيد والأسماء الحسنى الإلهية. ولذلك نعرف السرّ في أهميَّة مشاهد الرسول والأئمة عليهم السلام حيث يجري عليها أحكام المساجد.

ففي روضة الكافي عن أبي بصير قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل: "**في بيوت أذن اللّه أن ترفع**" قال:

«هي بيوت النبي ﷺ».

وقد بيَّن رسول اللّه بالتحديد مصداق هذه البيوت كما يدل عليه الحديث التالي عن ابن عبّاس قال:

«كنت في مسجد رسول اللّه ﷺ وقد قرأ القارئ "في بيوت أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه... الآية" فقلت: يا رسول اللّه ما البيوت؟ فقال: بيوت الأنبياء وأومأ بيده إلى منزل فاطمة عليها السلام»(٣٣).

وأيضاً: لما قدم قتادة -وكان فقيهاً عالماً لا يتزعزع أمام كبار العلماء- على الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، وقبل أن ينطق قال له الإمام عليه السلام:

«ويحك يا قتادة، إن اللّه تعالى خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاًعلى خلقه، وهم أوتادٌ في أرضه، قوّامٌ بأمره، نجباء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه، أظلّة عن يمين عرشه. فسكت قتادة طويلاً، ثمّ قال: أصلحك اللّه، واللّه لقد جلستُ بين يدي الفقهاء وقدّام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك! فقال أبو جعفر عليه السلام: "أتدري أين أنت؟ بين يدي بيوت أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ونحن أولئك. فقال قتادة: صدقت واللّه، جعلني اللّه فداك، واللّه ما هي بيوت حجارة ولا طين!»(٣٤).

وسوف نشير في بيان آية التطهير إلى الفرق بين "البيوت" و"بيوتكنَّ" إن شاء اللّه تعالى. والجدير بالذكر قوله تعالى:

﴿وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣٥).

قال علي عليه السلام في تفسير الآية المباركة: «**نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سميَّ سارقاً**»(٣٦) وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب**»(٣٧).

الأرواح اليقظة

ثمَّ بيَّن سبحانه خصوصيّات تلك البيوت بقوله: ﴿**أَذِنَ اللّه أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾(٣٨).

فهل تجد بيتاً من طين يشتمل على هذه الخصوصيَّة؟ وهل المساجد تتَّصف بهذه الصفات؟

إنَّ الذكر الدائم يختص بهم عليهم السلام، فهم الذين نزل في شأنهم قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾(٣٩).

فكما أنَّ الإنسان في بدنه ينام ويستيقظ، فكذلك في روحه، فلربَّما يكون الروح في حالة اليقظة أو في حالة النوم، ويقظة الروح هي الذكر كما أنَّ نومَه هو الغفلة.

والدنيا بطبيعتها توجب الغفوة والنوم، والذكر اسم اللّه تعالى فبذكره يرتفع النوم ويوقظ الروح.

كما أنَّ الكتاب الذي يوعي الأرواح يسمى ذكراً، لأنَّ الانسجام معه والعمل به يؤدِّي إلى استيقاظ الروح الذي هو أهم سعادة للإنسان.

فالمستيقظ بنحو دائم الذي لا ينام روحه أصلاً هو شخصٌ واحد، وهو ولي العصر وصاحب الأمر روحي له الفداء. فهو ينام من حيث البدن ولكن روحه متعلقٌ بالملأ الأعلى، وهذا هو مقام المعصومين الأربعة عشر فقط، ثلاثة عشر رجلاً وامرأة واحدة تمكنت من إيصال نفسها إلى هذا المقام وهي الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، ومن أجل ذلك وصلت الزهراء عليها السلام -رغم كونها امرأة - إلى مستوى الولاية الإلهيَّة، ولا يوجد في الكون امرأة لها الولاية إلاّ الصديّقة عليها السلام.

ومن هذا المنطلق تعرف السر في أنَّ الكذب على اللّه تعالى ورسوله والزهراء عليهم السلام يؤدِّي إلى بطلان الصوم في شهر رمضان.

وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٤٠).

فالكل حتَّى الأنبياء لا بدَّ وأن يسألوا أهل الذكر، حيث أنَّهم هم الحفّاظ لعالمي التكوين والتشريع، وهم المنار في البلاد والأدلاء على الصراط.

ففي الكافي عن الحسين بن محمَّد عن المعلّى عن الوشّاء عن عبد اللّه بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزَّ وجلّ: "**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**" قال:

«**قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: الذكر أنا والأئمة عليهم السلام أهلُ الذكر**»(٤١).

يبقى المقطع الأخير من الآية المباركة وهو قوله:

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّه وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾(٤٢).

فهم يتاجرون إلا أنَّ التجارة والبيع لا تبعدهم عن اللّه أصلا فهم أعظم أجرا من غيرهم. ومن هنا عبَّر عنهم بقوله "**رجالٌ**" فهم يمتلكون صفات الرجال بمعنى الكلمة، والرجل كلّ الرجل هو الذي لا يقوده اللّهو، ولا تشغله أمور الدنيا عن الذكر أصلاً، وإن لم يكن من جنس الرجال خَلقاً، وإنَّ الذي يتَّبع أحاسيسه وعواطفه وهواه فهو ليس برجلٍ حقيقة وإن كان في صورة رجلٍ شكلاً. ومن هنا يمكننا أن نتعرَّف على الرجال المذكورين في قوله:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾(٤٣).

وقوله: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّه عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

ولا تخفى عليك لطافة كلمة "**رجال**" حيث وردت من غير الألف واللام. فالتنكير هنا يدلُّ على ارتفاع الشأن، وسموّ المنزلة، ورفعة المكانة.

المراجع والتوضيحات:

١ - غيبة النعماني، ص١٤١ . بحار الأنوار، ج٥١، ص١١٢ .

٢ - الرحمن ٢٦، ٢٧ .

٣ - الإقبال ص٢٩٧ . بحار الأنوار، ج١٠٢، ص١٠٧ .

٤ - البلد الأمين، ص٣٢٥ . بحار الأنوار، ج١٠٢، ص٢٤٧ .

٥ - الحشر٢١ .

٦ - الحشر ٢١ .

٧ - الحشر ٢١ .

٨ - الأسفار الأربعة، ج٧، ص٣١ .

٩ - الحشر ٢٢ : ٢٤ .

١٠ - المزمل ١ : ٤ .

١١ - المزمل ٥ .

١٢ - النور ٣٥ .

١٣ - راجع ص١٦ : ٢١ .

١٤ - تفسير القمي، ج٢، ص١٠٤، ١٠٥ . بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣١٥ .

١٥ - البقرة ١٧ .

١٦ - يونس٥ .

١٧ - يس٣٧ .

١٨ - الكافي، ج٨، ص٣٧٩ .

١٩ - الأعراف، ١٥٧ .

٢٠ - التغابن ٧ .

٢١ - الكافي، ج١، ص١٩٤، الرواية٢ .

٢٢ - الكافي، ج١، ص١٩٥، الرواية٤.

٢٣ - الأحزاب ٤٦.

٢٤ - النور ٣٥.

٢٥ - الزمر ٦٩.

٢٦ - تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٣. بحار الأنوار، ج٧، ص٣٢٦.

٢٧ - عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٢٧٦. بحار الأنوار، ج١٠٢، ص١٢٩.

٢٨ - معجم أحاديث الإمام المهدي، ج٥، ص٢٧٣.

٢٩ - كمال الدين ص٣٧١. بحار الأنوار، ج٥١، ص١٥٢.

٣٠ - بحار الأنوار، ج٥١، ص١٠٨.

٣١ - النور، ٣٦، ٣٧.

٣٢ - آل عمران ٧.

٣٣ - الفضائل، ص١٠٤. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٢٦.

٣٤ - بحار الأنوار، ج١٠، ص١٥٥. الكافي، ج٦، ص٢٦٥، ج١.

٣٥ - البقرة، ١٨٩.

٣٦ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج٩، الباب١٥٤، ص١٦٤.

٣٧ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج٧، الباب ١٠٨، ص٢١٩.

٣٨ - النور ٣٦.

٣٩ - النحل ٤٣.

٤٠ - النحل ٤٣.

٤١ - تاويل الآيات، ص٢٥٩. بحار الأنوار، ج١٦، ص٣٥٩.

٤٢ - النور ٣٦، ٣٧.

٤٣ - الاعراف ٤٦.

٣

كلمات الله

(٣)
كلمات الله

هناك نوعان من الحروف والكلمات والجمل:

النوع الأوَّل: التكوينية.

النوع الثاني: التدوينية.

الكلمات التكوينية هي الأساس التِّي لها المصداقية العينيَّة، وأمّا الكلمات التدوينيَّة فهي ليست على الحقيقة، بل إطلاق الكلمات عليها إطلاقٌ مجازي، وسميّت تدوينية باعتبار أنها تُدَوّن و تُكتب وهي المكوَّنة من "الألف والباء والجيم والدال..." تلك الحروف التي إن اجتمعت دلَّتْ على الحقائق العينيَّة الخارجيَّة.

فمثلاً عندما نقول "**الباب**" ففي عالم الخارج هناك بابٌ هو مصداقٌ للكلمة التي تلفظنا بها، والكلمة تُمثِّل ذلك الباب العينيَّ الخارجيَّ، وكذلك كلمة "**البحر**" و"**البرّ**" و "**السماء**" و "**الأرض**"، فالكلمة إذاً ليست هي حقيقة مستقلة في قبال الحقيقة الموجودة في الخارج. وعليه لا يمكن إطلاق الكلمة على الالفاظ، وإن أطلقت عليها فهو ليس إطلاقاً حقيقياً، بل هو على نحو المجاز و التسامح. والكلمات ليست هي إلاّ تَبْيين أو إيجاد الأشياء الخارجيَّة في ذهن السامع، فهناك شيء موجود في الخارج وهناك أمر آخر نحن تلفظنا به، ذلك كي نحقِّق صورةً من تلك الحقيقة في ذهن السامع.

فعندما سمينا "**الأرض**" بهذا الاسم أعني الهمزة والراء والضاد وسمينا " **البحر** " بالباء والحاء والراء و"السماء" بالسين والميم والألف والهمزة، فلا نقصد بذلك إلا الوصول من خلال تلك الكلمات إلى واقع الأرض والبحر والسماء ونقلها إلى أذهان الآخرين كي يتصوَّروا ما تصوَّرناه.

فلو كان هناك إنسانٌ يعيش في البر ولم يرَ البحر قطّ ونحن أردنا أن نبين له واقع البحر، فأفضل وسيلة لذلك هي استعمال الكلمات، حيث أنَّ هذه الكلمات حينئذ سوف توجد صور ذهنية عندنا، شريطة أن نبيِّن الواقع بشكلٍ صحيح وصورة واضحة لا غموض فيها، فربَّ متكلِّمٍ لا يمكنه نقل كلَّ ما في ذهنه إلى الآخرين، وذلك لضعف بيانه وقلة مخزونة و معرفته للكلمات التي يستخدمها حين الحديث أو عدم رعايته أدب تلك اللغة، فكميَّة الكلمات مضافاً إلى فهم أدب اللغة، لهما دورٌ رئيسيٌّ في نقل المفاهيم إلى الآخرين.

الكلمات التكوينية

وأمّا الكلمات التكوينيَّة فهي الأمور الخارجية والحقائق العينيَّة التِّي لها وجودٌ حقيقي، فواقع السماء والأرض والبرّ والبحر والجبال كلمات تكوينيَّة، سميت تكوينية لأن الله كوَّنها وأوجدها:

﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1] فقول الله هو الإيجاد لا التكلُّم، وليس هناك فاصل زمني بين الإيجاد والوجود، نعم هناك فاصل في الرتبة فقط، فهو الذي أوجدَها فوُجدت، و هذا شأن كلّ

علةٍ ومعلول كما هو ثابت في محلِّه[٢].

و بناء عليه فإن جميع الموجودات التِّي كوَّنها الله سبحانه وخلقها هي كلماته، وهي غير مختصَّة بعالم المُلك و الدنيا، بل تشمل عالم الملكوت والجبروت، فالجنَّة وما فيها كلمات الله التكوينيَّة، ولكثرتها وعدم إمكان إحصائها قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٣].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤] ومن الواضح أنَّ المقصود من الآية ليست الكلمات المكتوبة بل هي الكلمات الواقعيَّة العينيَّة.

ومن أبرز كلمات الله هم أصحاب الكساء الخمسة الذين بهم قبل الله توبةَ آدم عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٥].

و في هذا المجال أحاديث كثيرة نكتفي بذكر حديث واحد:

«عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما نَزلت الخطيئة بآدم و أُخرج من الجنَّة، أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم ادع ربك قال: يا حبيبي جبرئيل ما أدعو ؟ قال: قُلْ ربِّ أسألك بحق الخمسة الذين تخرجهم من صلبي آخر الزمان إلا تبت عليَّ و رحمتني، فقال له آدم يا جبرئيل

سمِّهم لي، قال: قُـلْ رب اسألك بحق محمد نبيك و بحق عليٍّ وصي نبيك و بحق فاطمة بنت نبيك و بحق الحسن و الحسين سبطي نبيك إلا تبت عليَّ ورحمتني فارحمني، فدعا بهنَّ آدم، فتاب الله عليه، و ذلك قول الله تعالى: فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، و ما من عبد مكروب يخلص النية و يدعو بهنَّ إلا استجاب الله له»(٦).

ولا تخفى عليك لطافة كلمة "**فتلقّى**" فهي تدل على نوعٍ من الانسجام بين آدم عليه السلام وبين تلك الأنوار الطاهرة، بحيث أنَّه بمجرد التلقِّي حصلت التوبة قـهراً "**فتاب عليه**"، وقال تعالى:

﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(٧).

وفي تفسير علي بن إبراهيم قد فسِّرت الكلمات في الآية:

«بالأئمة عليهم السلام و القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله»(٨).

كما أنَّ القرآن الكريم يطلق على النبي عيسى عليه السلام أنَّه كلمة من كلمات الله قال عزّ شأنه:

﴿إِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يا مريم إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾(٩) نلاحظ في هذه الآية المباركة أنَّ المسيح عيسى ابن مريم اسم ذلك النبي الذي هو كلمة الله وهو حقيقةٌ خارجيةٌ مقدَّسةٌ، قال تعالى:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾(١٠)، والكلمة

التي صدَّق بها يحيى هو المسيح عيسى بن مريم كما يستفاد ذلك بانضمامها إلى الآية السابقة وذهب إليه أكثر المفسِّرين.

وربَّما أطلقت الكلمة على الحوادث التِّي لها أهميَّة كما في قوله تعالى:

﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[11] فالآية تشير إلى الوقائع والحوادث الخارجية التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، وهي تتمثَّل في إلقائه في النار و ذبح ابنه إسماعيل و مواجهته لنمرود وغيرها، فكلُّ هذه القضايا حقائق خارجية أطلقت عليها كلمات.

وقد ورد في التوقيع الصادر من الناحية المقدسة حرسها الله تعالى: «**اللهم صل على حجتك في أرضك، وخليفتك في بلادك، والداعي إلى سبيلك، والقائم بقسطك، والثائر بأمرك، ولي المؤمنين و بوار الكافرين، و مجلي الظلمة، و منير الحق، و الساطع بالحكمة و الصدق، وكلمتك التامة في أرضك، المرتقب الخائف، و الولي الناصح، سفينة النجاة، و علم الهدى، و نور أبصار الورى، و خير من تقمَّص وارتدى**»[12].

والأدعية المأثورة عنهم عليهم السلام مليئة بذلك كدعاء السمات ودعاء جوشن الكبير وغيرهما.

و على ضوء ذلك يستنتج أنَّ الكلمات هي حقائق قبل أن تكون ألفـاظاً، وتلك الحقائق لا يفرق فيها بين أن تكون أمورا عينيَّة خارجيَّة أو وقائع وحوادث مهمَّة.

ثمَّ إنَّه من المحال ونحن نعيش عالم المادة أن نشاهد جميع الكلمات التكوينية حسّاً، بل يمكن لنا أن ننظر إلى بعضها بأعيننا المُلكيَّة وأمّا البعض الآخر فتفتقر إلى عين ملكوتيَّة برزخيَّة (ما وراء الطبيعة).

ومن هنا نرى بان الله سبحانه و تعالى يقول:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾(١٢).

فهناك أشياء و حقائق يمكن أن نُبصرها وهناك ما لا يمكن، ولكنّ كليهما تكوينيتان واضحتان، وإنَّما النقص و الضعف فينا -نحن الضعفاء- فيمكننا أن نبصر بعضها باعتبار أنَّها من عالم الملك ولا يمكننا أن نبصر البعض الآخر -مع وضوحها- لأنَّنا لم نصل إلى مستوى الملكوت، فالملآئكة وجودهم واضح وضوح الشمس إلاّ أنَّنا لا يمكننا رؤيتهم، كما أنَّ وجود الأرواح واضح أيضا ولكن لا يمكننا أن نُبصرها، و سرّ ذلك أنَّنا لا نعيش ذلك العالم.

ولشدة وضوحها وفرط ظهورها قال (**لا أُقسمُ**) فهي لا تحتاج إلى قسم كقوله تعالى:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾(١٤).

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(١٥).

﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَـذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾(١٦).

﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَـةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(١٧).

فاللاء النافية هاهنا ليست زائدة تأكيديَّة كما يتصوَّر الكثير من المفسِّرين، بل هي على حقيقتها، وإنَّما ذكرت لتبيِّن وضوح الشيء، ومن الطبيعي أنَّ هذه اللاء تنفي لتُثبِت، فنفيُ القسم هاهنا يعادل سبعين قسماً.

ورب إنسان لا يفهم الكلمات التكوينيَّة المُلكية ولا يبصرها مع أنَّه ينظر إليها بعينيه! فهو يرى و لايبصر، كما ورد في القرآن الكريم عن الذين كانوا ينظرون إلى رسول الله ﷺ:

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[١٨] فليس كل ما نراه نعرفه، بل نحن لا نعرف حقيقة الأشياء أصلاً، فالبصر في عالم الدنيا أيضا يحتاج إلى مستوى من الرقيِّ الروحي، فلا يتحقَّق البصرُ بمجرَّد النظر حيث أنَّ الحيوانات أيضاً تنظر لكنها لا تفهم. إذن هناك ثلاثة احتمالات:

الأول: النظر والفهم.
الثاني: النظر وعدم الفهم.
الثالث: عدم النظر وعدم الفهم.
هذا كلُّه بالنسبة إلى الكلام التكويني.

الكتاب التكويني و الكتاب التدويني

كتاب الله أيضاً على نحوين:

الأوَّل: تكويني.
الثاني: تدويني.

جميع الحقائق الموجودة في الكتاب التكويني موجودة في الكتاب التدويني، لأنَّ القرآن ليس هو إلاّ مظهراً للكتاب التكويني، وجميع الكتب مهما توسَّعت فهي لا تستوعب كلَّ الكتاب التكويني و لا تمثِّله، بل ينعكس فيها كمٌّ ضئيلٌ من الكتاب التكويني، فمثلاً كتب الطب أو البيئة أو العلوم الأخرى لا تمثِّل جميع التكوين بل تمثِّل قسماً منه.

الكتاب الوحيد الذي يمثل جميع ما في عالم التكوين هو القرآن الكريم، حيث أنَّ الله سبحانه و تعالى بقدرته المطلقة قد جمع الكلمات التكوينية جميعاً بما فيها من خصوصيات، في كتابه العزيز.

فنفس الحقائق الموجودة في الخارج أصبحت حروفاً و كلمات، فلو سمعتَ عن الاسم الأعظم، أو علم من الكتاب، أو علم الكتاب فلا تتوهم أنَّ المقصود من ذلك صرف الكلمات، بل المراد الكلمات التي تمثل عالمَ العين و الخارج، فهي -في الحقيقة- ليست إلاّ وقائع خارجية، ولكن ليس كلّ إنسان يعرف ما في القرآن بل يحتاج ذلك إلى الجدّ والجهد، فكما أنه تعالى و بالنسبة إلى كتاب التكوين يقول:

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١٩).

فلابد للإنسان من البحث للعثور على الرزق، فكذلك بالنسبة إلى القرآن لا بد من السير والفحص والدقّة للوصول إلى كنوزه غير النافدة.

فاتحة الكتاب التكويني

قال الإمام الخميني ﷺ:

"ففاتحة الكتاب التكويني الإلهي الذي صنفه (تعالى جدّه) بيد قدرته الكاملة بالوجود الجمعي الإلهي المنزّه عن الكثرة، المقدّس عن الشَين والكدورة بوجه، هو عالم العقول المجردة والروحانيين من الملائكة والتعين الأوَّل للمشيئة، وبوجه، عبارةٌ عن نفس المشيئة فإنّها مفتاح غيب الوجود وفي الزيارة الجامعة: بكم فتح الله، لتوافق أفقهم عليهم السلام لأفق المشيئة كما قال الله تعالى حكاية عن هذا المعنى: ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وهم عليهم السلام من جهة الولاية متحدون أوَّلنا محمّد، أوسطنا محمد، آخرنا محمد، كلّنا نور واحد، ولكون فاتحة الكتاب فيها كلّ الكتاب، والفاتحة باعتبار الوجود الجمعي في بسم الله الرحمن الرحيم وهو في باء بسم الله وهو في نقطه تحت الباء قال علي عليه السلام: أنا النقطة وورد: بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميَّز العابد عن المعبود"[٢٠].

فكما أنَّ الكتاب التدويني يبدأ بسورة الفاتحة فالكتاب التكويني أيضاً كذلك ففاتحة الكتاب التدويني هو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد للَّه رب العالمين...».

قال في مجمع البيان:

"سمِّيت بذلك لافتتاح المصاحف بكتابتها، و لوجوب قراءتها في الصلاة، فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن في الكتاب والقراءة"[٢١].

وقد وردت أحاديث تؤكّد أهميَّة هذه السورة منها ما ورد:

«إن الله خص بسورة الفاتحة محمداً ﷺ و شرفَّه بها، و لم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان عليه السلام، فإنَّه أعطاه منها بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت: إنِّي ألقي إليَّ كتاب كريم إنَّه من سليمان و إنَّه بسم الله الرحمن الرحيم»(٢٢).

وهي أوَّل سورة من الكتاب التدويني من حيث الافتتاح لا من حيث النـزول، فكذلك للكتاب التكويني فاتحة وهي أوَّل سورة لها، وهي أوَّل ما ظهر من العوالم بعد مرحلة الغيب المطلق أعني عالم الأحديَّة الذي لاسبيل للوصول إليه، فأوَّل ما ظهر هو التعيُّن الأوَّل، وهو عالم العقول المجردة أعني عالم الروحانية، وهو أوَّل مصداقٍ لمشيئته تعالى.

هذا و لو تأمَّلنا أكثر لعرفنا بأنَّ أوَّل ما ظهر إنَّما هو نفس المشيئة الإلهيَّة كما شرحنا هذا الأمر بالتفصيل فراجع.(٢٣)

وفي الحديث:

«عن زيد الشحام قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام أيّما أفضل الحسن أم الحسين؟ فقال: إن فضل أوَّلنا يلحق فضل آخرنا، و فضل آخرنا يلحق فضل أوَّلنا، فكلٌّ له فضل، قال: قلت له جعلت فداك وسِّع عليَّ في الجواب فإنِّي و الله ما أسألك إلا مرتاداً، فقال: نحن من شجرة برأنا الله من طينة واحدة، فضلُنا من الله، وعلمُنا من عند الله، ونحن أمناء الله على خلقه، والدُّعاة إلى دينه، والحجاب فيما بينه وبين خلقه، أزيدك يا زيد! قلت نعم، فقال: خلقُنا واحد، و علمُنا واحدٌ، وفضلنا واحد، وكلُّنا

واحدُ عند الله عز وجل، فقلت: أخبرني بعدتكم، فقال: نحن إثنا عشر هكذا حولَ عرش ربِّنا جل وعز في مبتدأ خلقنا أوَّلنا محمد، وأوسطنا محمد، و آخرنا محمد»(٢٤).

وفي حديث طويل قال عليٌّ عليه السلام مخاطباً أبا ذر وسلمان:

«أنَّه لا يستكمل أحدٌ الإيمانَ حتّى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية... ثمَّ قال: معرفتي بالنورانية معرفةُ الله عزّ وجلّ، ومعرفةُ الله عزّ وجلّ معرفتي بالنورانية، وهو الدين الخالص الذي قال الله تعالى "و ما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين" »(٢٥).

وفي حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«لا تعجبوا من قدرة الله، أنا محمد و محمد أنا»(٢٦).

و قال الإمام الباقر عليه السلام:

«يا قوم لا تعجبوا من أمر الله، أنا عليٌّ، وعليٌّ أنا، وكلنا واحد من نور واحد، وروحنا من أمر الله، أوَّلنا محمَّد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمّد، وكلنا محمّد»(٢٧).

حرف الباء

إنَّ فاتحة الكتاب التي بها يفتتح الكتاب التدويني تبتدأ بالبسملة، وهذه البسملة مرتبطة بالفاتحة، وهي جزء من السورة، والباء هي التي ربطت بين "**بسم الله الرحمن الرحيم**" وبين "**الحمد لله رب العالمين**".

ومن هنا أصبحت الباء هي الرابط بين الاسم والحمد، وفي الحديث الشريف النقطة هي ولي الله الأعظم، فهو الرابط بين الخالق والمخلوق، حيث أنَّ المخلوق قد ظهر من خلال "**الحمد لله رب العالمين**" لأن الحمد كلَّه للَّه حيث لا حمدَ إلاّ للجمال، والكمال، والقدرة، و كلُّها مظاهر الله سبحانه، الظاهرةُ في أسمائه، فنحن نشاهد المحبوب في آياته و آثاره، فنمدحها لأنَّها مرآته تعالى: «**ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه**».

متعلق الجار و المجرور

ولا يخفى أنَّ الجار والمجرور يفتقران إلى متعلَّق، فعلاً كان أو أسمَ فاعلٍ أو اسمَ مفعول أو صفةً مشبّهة باسم الفاعل أو أفعل تفضيل أو مصدر، والسر في ذلك أنَّ الحرف ما هو إلا رابط، والرابط لا بدَّ أن يربط بين شيئين، فلو لم يكن هناك إلاّ شيءٌ واحدٌ، فلا ربط في البين وحيث لا ربط فلا مربوط.

وربَّما يحذف المتعلَّق عند وجود قرينة على الحذف، كما في قولك "**زيدٌ في الدار**" أي مستقرٌّ. ولكن هذا الأمر لا يتأتَّى في البسملة، فعندما يقال "**بسم الله الرحمن الرحيم**" من الطبيعي أن يُسأل: باسم الله ماذا ؟

في الجواب قال الكثير من المفسرين: "**باسم الله أستعين**"، وهذا رغم شهرته لا دليل عليه، فلقائل أن يقول باسم الله أتوكَّل أو أستغفر أو ...، كلُّ تلك الأفعال تفتقر إلى قرينة غير موجودة، فما هو الحلّ إذاً؟

ارتباط البسملة بالسورة

مادامت البسملة مرتبطة بالسورة فلماذا نلتجئ إلى خارج السورة للبحث عن متعلق، فبالإمكان حصول المتعلَّق من نفس السورة وهو المتعيَّن.

أقول: إنَّ المتعلَّق للجار و المجرور في البسملة هو ما يأتي بعدها، وفي سورة الفاتحة هو "**الحمد للَّه**".

فيكون المعنى هكذا:

إنَّ جنس الحمد أي كلُّه لله تعالى، ذلك لأنَّه لا يتحقق حمدٌ إلاّ باسمه تعالى فمادام الحامد هو اسم الله و المحمود هو اسم الله، فالحمد لله، باسم الله.

وهذا لا يختص بسورة الفاتحة بل هو جارٍ في جميع السور، فباسم الله الرحمن الرحيم اقرأ، و باسم الله الرحمن الرحيم قُلْ و هكذا، وان كانت دائرة الاسم في كلِّ سورة غير دائرته في سورة أخرى، كما أنَّ أوسع دائرة و نطاق لاسم الله هو نطاق الاسم الموجود في بسملة سورةِ الفاتحة، وذلك لسعة إطار **الحمد لأنَّه لله ربِّ العالمين**.

نعم: إنَّ سورة التوبة لا تبتدئ باسم الله حيث البراءة وهي تعني الابتعاد و التنفُّر و الإنزجار، ولا يكون ذلك باسم الله، فالعدم الصرف و الشرّ المحض لا يكون مظهراً من مظاهر الله تعالى، فهو جلّ شأنه و تبارك اسمه وجودٌ مطلقٌ و خيرٌ محضٌ وكمالٌ صرف.

أهمية نقطة الباء

مادام أنَّ الرابط بين اسم الله الرحمن الرحيم الراجع إلى الحق وبين الحمد للَّه رب العالمين الراجع إلى الخلق إنَّما هو الباء، فبطبيعة الحال، أوَّلُ مظهَرٍ من مظاهر الله تعالى وأوَّل تجلٍّ من تجلياته الذي هو أعلى مستوى من الخلق و ذلك لتقدِّمه على الخلق، هو الباء وقد ورد:

«بالباء ظهر الوجود وبالنقطة يتميز العابد عن المعبود».

ولايخفى أنَّ النقطة هي الباء، لأنها تتميَّز بنقطتها الموحَّدة عن المثناة أي التاء وامثلَّثة أي الثاء، فبهذه النقطة قد تميَّز العابد عن المعبود وذلك باعتبار أنَّ أوَّل ما ظهر هو الباء، وهي المشيئة التي شرحناها سابقاً.

وقال علي عليه السلام: **«أنا النقطة»**(٢٨).

وقد ورد في الزيارة الجامعة: **«بكم فتح الله»**(٢٩).

وقال تعالى: ﴿**السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾(٣٠).

«وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى "والسابقون السابقون أولَّئك المقربون" قال: نحن السابقون...»(٣١).

القلم

قال الإمام عليه السلام: **"وفي بعض خطب أمير المؤمنين ومولى الموحدين سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه: "أنا اللوح وأنا القلم، أنا العرش، أنا الكرسي، أنا السموات السبع، أنا نقطة باء**

بسم الله "وهو سلام الله عليه بحسب مقام الروحانية يتحدُّ مع النبي ﷺ، كما قال ﷺ "أنا وعلي من شجرة واحدة" وقال: "أنا وعليٌّ من نور واحد" إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالة على اتحاد نورهما عليهما السلام وعلى آلهما" (٣٢).

أقول وفي تفسير على بن إبراهيم: «**عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوَّل ما خلق الله القلم، فقال له اكتبْ، فكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة**»(٣٣).

وفي حديث آخر:

«**عن محمد العطار عن ابن أبان عن ابن أورمة عن النوفلي عن على بن داود اليعقوبي عن الحسن بن مقاتل عمن سمع زرارة يقول: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن بدء النسل من آدم على نبينا و آله و عليه السلام... إن الله عزّ وجلّ أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة، قبل خلق آدم بألفي عام، و إنَّ كتب الله كلها فيما جرى فيه القلم**»(٣٤).

ونتساءل: ماذا يقصد بالقلم؟ و لم سمِّي بهذا الاسم؟ و ما هو دور القلم؟

في الجواب نقول:

إنَّ دور القلم هو إظهار ما في الضمير على صفحة الورق، فالإنسان عندما يستخدم القلم ليكتب به فهو إنَّما يظهرُ ما هو مكنون و مكتوب على صفحة نفسه و باطنه، ويكتب به على صحيفة حسِّية شهودية وهي الورق. فالقلم إذاً واسطة بين ما في الضمير "**أعني الغيب**" و بين

الشهود، ووسيلة لظهور الفيض و نشره على الصحيفة الظاهرة، ومن هنا أُطلق القلم على أوَّل ما خُلق، لأنَّه تعالى كتب به بيديه الجلالية و الجماليَّة، فالقلم واسطة بين الخالق و المخلوق.

والجدير بالذكر ما ورد في الحديث التالي عن ابن عبّاس قال:

«**إن أوَّل ما خلق الله من شيءٍ القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة و الكتاب عنده ثم قرأ: "و إنَّه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم"**»(٣٥).

و في كنز العمال عن الحسن بن أبي الحسن الديلمي بإسناده:

«**عن أبي عبد الله عليه السلام و قد سأله سائل عن قول الله عزّ وجلّ: و إنَّه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم، قال: هو أمير المؤمنين**»(٣٦).

فهناك مقامان لوليِّ الله الأعظم، مقامٌ غيبي و مقامٌ شهودي.

وفي دعاء الغدير المنقول في التهذيب و المصباح:

«**فاشهدْ يا إلهي إن الإمام الهادي المرشد الرشيد علي بن أبي طالب عليه السلام أمير المؤمنين الذي ذكرتَه في كتابك فقلت: و إنّه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم**»(٣٧).

وعلى ضوء ما قلنا يمكنك الجمع بين الأحاديث المختلفة في هذا المجال ففي أسئلة الشامي من أمير المؤمنين عليه السلام، قال الشامي:

«**أخبرني عن أوَّل ما خلق الله تبارك و تعالى فقال: خلق النور**»(٣٨).

كما أنَّ هناك حديثاً آخر روي عن رسول الله ﷺ قال: «أوَّل ما خلق الله نوري»(٣٩).

وهو ﷺ العقلُ الأوَّل الذي قد وردت أحاديث كثيرة في شأنه وأنَّ: «**أوَّل ما خلق الله العقل**»(٤٠).

الإمـام المبين

من هنا يمكنك معرفة الآية المباركة التالية:

﴿**وكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِين**﴾(٤١).

فالإنسان الكامل يشتمل على كلِّ شيء وكل حادثة، وعليه نعتقد أنَّ أئمتنا عليهم السلام يعلمون ما كان و ما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإذا عرف الإنسان خليفة الله فقد عرف الله، وذلك لأن خليفة الله هو باب معرفته تعالى، وكل صفة من صفاته تجلٍ و مظهرٌ لصفة من صفات الله تعالى، فعلمه مظهر لعلم الله، وقدرته مظهر لقدرته، وحلمه مظهر لحلمه، ولطفه مظهر للطفه و هكذا سائر صفاته، و أفُقُه نفس أفق القرآن الكريم، فهو القرآن الناطق المشتمل على كلِّ شيء كما أنَّ القرآن الذي بين الدفتين في المصحف الشريف هو الكتاب الصامت الذي يقول عنه تعالى:

﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾(٤٢).

ومن هنا قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤٣).

و في الحديث المعروف عن النبي ﷺ:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»(٤٤).

وقد ذكر صدر المتألهين ﷺاحتمالات أربعة لهذا الحديث ومن جملتها:

من عرف الإنسان الكامل وهو النبّي الأكرم محمَّد ﷺ فقد عرف ربَّه، إذ أنَّ الإنسان الكامل هو المثل الأعلى للَّه سبحانه وتعالى، فبمعرفته يعرف الإنسان ربَّه، ولئن كان النظر إلى سائر المخلوقات يوصل الإنسان إلى الربّ، فإنَّما يتعرَّف على ربِّها، لا ربِّ الناس، وبين الأمرين بونٌ بعيد. لاحظْ دعاء الجوشن الكبير العظيم الشأن الذي رواه جماعة من متأخري أصحابنا ﷺ، وهو من الأدعية المعروفة المروية عن الإمام السجاد زين العابدين عن أبيه عن جدِّه علي بن أبي طالب عن النبي الأكرم صلوات الله عليهم أجمعين:

«يا رب النبيين و الأبرار، يا رب الصدِّيقين و الأخيار، يا ربّ الجنة و النار، يا ربّ الصغار و الكبار، يا ربّ الحبوب و الثمار، يا ربّ الأنهار و الأشجار، يا ربّ الصحاري و القفار، يا رب الراري و البحار، يا ربّ الليل و النهار، يا ربّ الإعلان و الإسرار»(٤٥).

ثمَّ قارن بينه وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(٤٦).

ومن هذا المنطلق يمكنك معرفة الحديث القدسي الذي يقول: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف**»(٤٧).

فكل من يتكلَّم فهو يحب أن يُظهر ما في ضميره ويشتاق إلى إعلانه، فمنشأ التكلّم هو العشق، والقرآن الكريم هو إظهار للغيب المطلق الذي هو الكنز المخفي، وفي الحديث: «**إنَّ الله تعالى تجلَّى في كتابه و لكن لا تبصرون**» ومن هنا صار النظر إلى الكتاب الإلهي نظرٌ إلى الله سبحانه وتعالى، فكذلك الإنسان الكامل أعني الرسول الأكرم ﷺ كالقرآن الكريم بالنظر إليه يُعرف الله سبحانه وتعالى.

قال صدر المتألهين ﷺ: " **قال تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" و المراد منها نفوس الكمَّل من الأنبياء و المرسلين، لأنَّ نفسَ كلِّ واحد منهم كلمة تامة نازلة من عند رب العالمين "كتاب مرقوم يشهده المقرَّبون" مشتملٌ على آيات الملك و الملكوت و أسرار قدرة الله والجبروت، ثم اصطفى من بينهم كلمةً جامعةً "أوتيت جوامع الكلم"، و أرسل إلينا رسولاً كريماً، ونوراً مبيناً، وقراناً حكيماً، وصراطاً مستقيماً، وتنزيلاً من العزيز الرحيم، فجعل نسخة وجوده نجاةَ الخلق من عذاب الجحيم، وكتابَه خلاصاً من ظلمات الشياطين، والقرآنَ النازل معه براءة العبد من سلاسل تعلّقات النفس ووساوس إبليس اللعين**"(٤٨).

ثمَّ يختم كلامه (ره) في الموعظة الحسنة نذكرها إتماماً للفائدة:

"فاعرفه أيُّها السالك إلى الله ! حتى تعرف ربَّك، قال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" وقال الرسول: "من رآني فقد رأى الحق" فصحِّحْ يا مسكين نسبتك إليه لأنَّه الأصل في الوجود، والمؤمنون بالله واليوم الآخر تابعون له في المقام المحمود، والمؤمن من صحَّتْ له نسبة التابعية، كمرآة وقعت في محاذاة مرآة حاذت الشمس فيتحدَّ معه في النور "ومن لم يجعلِ الله له نوراً فماله من نور" فافهم هذا "(٤٩).

المراجع والتوضيحات:

١ - النحل ٤٠.

٢ - راجع كتب الحكمة كبداية الحكمة ونهاية الحكمة للعلامة الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه.

٣ - الكهف ١٠٩.

٤ - لقمان ٢٧.

٥ - البقرة ٣٧.

٦ - تفسير الفرات ص٥٨، وبحار الأنوار ج٢٦، ص٣٣٣ باختلاف.

٧ - يونس ٨٢.

٨ - تفسير القمي، ج٢، ص٢٧٥. وبحار الأنوار، ج٩، ص٢٣٤.

٩ - آل عمران ٣٩.

١٠ - آل عمران ٣٩.

١١ - البقرة ١٢٤.

١٢ - الاحتجاج، ص٤٩٤. بحار الأنوار، ج٩٤، ص٢ باختلاف.

١٣ - الحاقة ٣٨، ٣٩.

١٤ - الواقعة ٧٥.

١٥ - الإنشقاق ١٦: ١٨.

١٦ - البلد ١: ٣.

١٧ - القيامة ١، ٢.

١٨ - الأعراف ١٩٨.

١٩ - الملك ١٥.

٢٠ - شرح دعاء السحر، ص٦٤.

٢١ - تفسير مجمع البيان، ج١، ص٤٧.

٢٢ - الأمالي للشيخ الصدوق، ص١٧٦. بحار الأنوار، ج١٤، ص١٢٨.

٢٣ - الكلمة الأولى تحت عنوان محال مشيئة الله.

٢٤ - غيبة النعماني، ص٨٥-٨٦. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٦٣ باختلاف.

٢٥ - بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٦.

٢٦ - بحار الأنوار، ج٢٦، ص١.

٢٧ - بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٢.

٢٨ - المناقب، ج٢، ص٤٩. بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٦.

٢٩ - عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٢٧٦. بحار الأنوار، ج١٠١، ص١٥٣.

٣٠ - الواقعة ١٠:١٢.

٣١ - المناقب، ج٤، ص٢٨٣. بحار الأنوار، ج٢٤، ص٤.

٣٢ - شرح دعاء السحر، ص٨٧.

٣٣ - تفسير القمي، ج٢، ص١٩٩. بحار الأنوار، ج٥٧، ص٣٦٦.

٣٤ - علل الشرايع، ص١٩. بحار الأنوار، ج١١، ص٣٢٣.

٣٥ - بحار الأنوار، ج٥٧، ص٣٧١.

٣٦ - بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢١٠.

٣٧ - الإقبال، ص٤٧٧. بحار الأنوار، ج٩٨، ص٣٠٤.

٣٨ - علل الشرايع ص٥٩٣. عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٤١. بحار الأنوار، ج١، ص٩٦.

٣٩ - عوالي اللئالي، ج٤، ص٩٩. بحار الأنوار، ج١، ص٩٧.

٤٠ - نهج البلاغة، ج١٨، ص١٨٥. بحار الأنوار،، ج١، ص٩٧.

٤١ - يس ١٢.

٤٢ - الأنعام ٥٩.

٤٣ - فصلت ٥٣.

٤٤ - نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩٢. الصراط المستقيم، ج١، ص١٥٦. بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢.

٤٥ - مصباح الكفعمي، ص٢٥٤. بحار الأنوار، ج٩٤، ص٣٩١.

٤٦ - الناس ١ : ٦.

٤٧ - بحار الأنوار، ج٧٨، ص١٩٩.

٤٨ - الحكمة المتعالية، ج٧، ص٢٠.

٤٩ - الحكمة المتعالية، ج٧، ص٢١.


٤
أولياء الله

(٤)
أولياء الله

إن الله سبحانه وتعالى هو الوجود المطلق بلا قيد، فهو مستجمع لجميع الخيرات بنحو مطلق، فهو جمال مطلق، وعلم مطلق وقدرة مطلقة، وإرادة مطلقة بل هو الكمال المطلق بجميع ما تحمل الكلمة من معنى، فهو بجميع خصوصياته التي يدلُّ عليها الاسم الجامع وهو الله سبحانه وتعالى قد ظهر في الوجود، وتجلّى في الكون، فجميع الكون هو وجه الله و مظهره، فليس هناك جمال إلاّ الجمال الإلهي، وليست هناك إرادة إلاّ إرادة الله، و الكل فقير إليه، وحقائق جميع الأشياء بيده سبحانه:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

ومن هنا يتبيّن المراد من قوله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾[٢].

و قوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٣].

يقول العارف الفارسي:

"سيه رويي زممكن در دو عالـم ــ جدا هرگـز نشـد والله أعلم"

أي سواد الوجه لم و لن ينفصل أبداً من ممكن الوجود و هو "كلّ ما سوى الله تعالى"، سواء تلبَّس بالوجود أم لم يتلبس به، حيث أنَّ ممكنَ الوجود طبيعتَه طبيعةٌ سوداء مظلمة لا نور لها:

"كلُّ ما في الكون وهمٌ أو خيال ـ أو عكوس في المرايا أو ظلال"

وظهور ممكن الوجود كله يرجع إلى الوجود، فلأجل وُجوده ظهر، فلولا الوجود لما ظهر الممكن أصلاً، فليس هناك شيء ظاهرٌ في الكون إلا الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى وليس هناك شيء باطن إلاّ الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾(٤) فلا أول قبل الوجود ولا آخر بعده، لأن الحق المطلق ليس أولاً له آخر، ولا هو آخرٌ له أوَّل بل كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الأول بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخرٍ يكون بعده»

فالأول هو، والآخر هو، وجميع الموجودات مظاهره تعالى، ليس لها أي استقلال وأصالة أبداً، بل هي أمور اعتبارية محضة:

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ... ﴾(٥).

فالغافل من يرى الأشياء فيحسبها مستقلة في الوجود و يعتبرها ذات قيمة، فيُقَيِّم الدنيا و الآخرة و المال و الجاه و الجمال، فهو الأعمى حقاً:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٦).

﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴾[٧].

فالآية صريحة في أنَّ الله تعالى نور السماوات والأرض وليس مُنوِّرها، فيا ترى ما هو المقصود من هذه الآية المباركة ؟

إنها تريد القول بأنَّ الله نور السماوات والأرض، وهما إشارة إلى جميع الكون سواء المُنَور منه أو غير المنور، أعماق الأرض أو سطحها.

فالكواكب التي لا تصل إليها نور الشمس أيضاً ذات نور، ونورُها هو الله وحده لا شريك له.

فجميع الموجودات سواء كانت مظلمة في الظاهر أو مضيئة، حتى السُّرُج كالشمس بل وحتى نفس النور، كلها مظلمة في حدِّ ذاتها، حيث أنَّها معلولة فقيرة تحكمها الحدود و التعيُّنات والقابليات[٨]، ولذا يمكن السؤال عنها بكيف وأين وكم وهل !

وأمّا الله فهو نور مطلق ليس له حدٌّ ولا يأيَّن بأين، وفي الكافي بإسناده عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور قال:

«خطب أمير المؤمنين عليه السلام خطبة بعد العصر فعجب الناس من حسن صفته وما ذكره من تعظيم الله جلّ جلاله، قال أبو إسحاق، فقلت للحارث أ و ما حفظتَها قال: قد كتبتها، فأملاها علينا من كتابه: الحمد لله الذي لا يموت و لا تنقضي عجائبه... ليست في أوَّليَّته نهاية، ولا لآخريته حدّ ولا غاية، الذي لم يسبقه وقتٌ، و لم يتقدَّمه زمان، ولا يتعاوره زيادة، ولا نقصان ولا يوصف بأين و لا بِمَ و لا مكان»[٩].

وهو تعالى الذي جعل النور نوراً:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(١٠).

فشعَّ النور المطلق، فكلٌّ اكتسب النور على قدر استعداده وقابليته:

«يا نور كلّ نور... يا نور كلّ شيء»(١١).

فالله سبحانه وتعالى هو نور النور باعتبار أن النور لا يكون كذلك إلا إذا كان موجوداً فالوجود هو النور حقيقةً، وهو منور النور، و خالق النور و مدبّر النور و مقدِّر النور، حيث أنَّ نورانية النور من الوجود، كما أنَّ جمال الجميل و قدرة القادر و إرادة المريد من الوجود، فهو نور فوق كل نور، و نور ليس كمثله نور.

«وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء»(١٢)

فالنور الحسي مهما بلغ من الشدة فله قَدَر محدود وسوف ينتهي أمده من ناحية الزمان وتنتهي شموليته من ناحية المكان، فمادام هو محدود فسوف يكون لها أفول و زوال، وهذا شأن كلِّ شيء ذي حدّ، لأنَّه متغير، وكل متغير حادث، أي لم يكن وكان، فوجوده ليس من نفسه بل هو من واجب الوجود أعني الله سبحانه وتعالى.

و من المستحيل أن يخبو النور المطلق:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾(١٣).

وعلى ضوء ما ذكرنا يمكن أن نصل إلى مستوىً من عمق كلمات أئمتنا عليهم السلام في هذا الموضوع.

ففي دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام:

«أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدلُّ عليك، و متى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تزال تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيبا»(١٤).

فليس هناك حجاب في قبال هذا النور، لأنْ ليس وراء الحق المطلق شيء يحجبه.

ففي الكافي بإسناده:

«عن محمد بن زيد قال: جئت إلى الرضا عليه السلام أسأله عن التوحيد، فأملى عليَّ: الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً، ومبتدعها ابتداعاً... إحتجب بغير حجاب محجوب، و استتر بغير ستر مستور، عُرِف بغير رؤية و وصف بغير صورة، و نُعت بغير جسم، لا إله إلا الله الكبير المتعال»(١٥).

وروي مثله عن أبي إبراهيم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام(١٦).

فكلّ شيء في عالم الملك و الدنيا قد إكتسب الوجود من الفيّاض المطلق بمقدار الوعاء الخاص به و القدَر المعيَّن له:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(١٧).

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(١٨).

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(١٩).

ومن الطبيعي أنّ الموجودات كلّها قد أُحسن خلقها، فلا تتمنى أن تتبدل إلى غيرها:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٢٠).

ومن هذا المنطلق ليس هناك تفاوت في خلق الرحمن، كيف وهو ذو الرحمة الواسعة!

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(٢١).

فلو نظرنا إلى نظام الخلق وتعمقنا فيه لعرفنا بأن هناك نظاماً طولياً يبدأ من الحق المطلق وينتهي إلى الجماد.

وكلُّ هذا الاختلاف لم ينشأ من الله سبحانه وتعالى، فهو ليس ببخيل بل هو الغني على الإطلاق، و الفيّاض المطلق، وهو دائم الفضل على البرية، وباسط اليدين بالعطيّة، فلا يعقل أن يمنع الأشياء قسطها، كيف وهو القائل:

﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(٢٢).

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾(٢٣).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(٢٤).

وفي سورة الرعد قد قرَّب سبحانه هذه الحقيقة بمثال رائع حيث قال: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾(٢٥).

فمن خلال هذه الآية المباركة نعرف:

أنَّ الماء الذي أنزله الله لم يكن محدوداً، بل كان كثيراً، و من كثرته انقلب سيلاً، وأمّا الأودية فكانت مختلفة من حيث القابليّة، فكلّ وادٍ منها كان يتحمّل الماء بمقدار سعته ووعائه، وبعد الفيضان حصل الباطل الذي يتمثّل في الزبد الرابي المتلوّن والمتشكل بأشكال مختلفة ذات المظهر الخلابّ المغري.

ولأنَّ الملائكة عقول محضة فلايتصور فيها التكامل، وكذلك الجمادات والنباتات والحيوانات بطبيعتها محدودة الإطار بلا زيادة ولا نقصان، فلا تتكامل من ناحية القرب إلى الله أي التكامل الطولي، وإنّما يمكن تربيتها ونموّ استعدادها، وهذا ما يطلق عليه التوسع العَرضي.

ولمكان هذا التسلسل الطولي أصبح كلٌّ منها ولياً تكوينياً على الآخر، فالحيوان له الولاية التكوينية على النبات، والنبات على الجماد.

وأماّ الإنسان فضلا عن أنه حيوان ونبات وجماد له الولاية التكوينيَّة (بما هو إنسان) عليها.

والنفس الإنسانية مضافاً إلى إمكان توسعتها عَرضاً، فإن بمقدورها أنْ تتكامل في النظام الطولي، ففي الجانب العَرْضي يتوسَّعُ الإنسان بالعلوم التجريبية كالطبّ والفيزياء والكيمياء وحتى الصناعات، فهذه العلوم بما هي علوم ليس لها أيُّ دور في تكامل الإنسان وتقربه إلى الله سبحانه.

نعم: ربَّما تكون سبباً ووسيلةً لسلوك الإنسان في مراتبَ طوليَّةٍ تقرِّبُه إليه تعالى.

وأمّا العلوم الإنسانيَّة فبطبيعتها تصنع الإنسان و تبنيه فتوسِّع في أفقه وترفعه إلى مستويات عالية تقرِّبه إليه تعالى، ومن هنا تكون للإنسان الكامل ولاية تكوينيَّة على غيره من الموجودات، بل على الإنسان الذي دونه شأناً ومنزلةً[٢٦].

وهذا هو مقام رسول الله ﷺ والأئمَّة المعصومين عليهم السلام الذين هم خلفاء الله في الأرض ومظاهر صفاته وأسمائه، فجميع الموجودات تكون تحت ولايتهم التكوينيَّة، فلهم الولاية على جميع ذرات الكون.

قال الإمام عليه السلام:

"إنَّ للإمام مقاماً محموداً و درجةً سامية و خلافةً تكوينيَّة تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرّات هذا الكون"[٢٧].

فلا تظهر صفة من صفاته سبحانه حتَّى الإرادة في موجود من الموجودات إلاّ من خلال تلك الأنوار الطاهرة، وهذه الولاية هي مرآة ولاية الله سبحانه.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه هو منشأ الخيرات:

﴿بيدك الخير﴾(٢٨).

ولكن حيث أنَّهم عليهم السلام أوَّل فيض من فيوضاته لأنَّ بهم فتح الله، فلهذا و صلوا إلى مرتبة نخاطبهم:

«إن ذكر الخير كنتم أوّله، وأصله، وفرعه، ومعدنه، ومأواه، ومنتهاه»(٢٩).

فجميع ذرات الكون حتى الجمادات لا يمكن أن تصل إلى غاية كمالها إلاّ بهم، فكما أنَّ القرآن الكريم يشتمل على جميع الحقائق:

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣٠).

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣١).

فكذلك ولي الله الأعظم، حيث أنَّ له الولاية التكوينيَّة، فكلُّ شيءٍ تحت سلطانه و إرادته بإذن الله تعالى:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(٣٢).

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(٣٣).

والآية تشير إلى الهداية بالأمر التي هي الولاية التكوينيَّة، و قد تحدَّث عنها العلامَّة الطباطبائي قدس سرُّه في الميزان فراجع(٣٤).

وفي الحديث:

«محمد بن يحيى و غيره عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن محمد بن الفضيل قال: أخبرني شريس الواشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنَّ اسم الله الأعظم على ثلاثة و سبعين حرفا، و إنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه و بين سرير بلقيس حتّى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، و نحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان و سبعون حرفاً، وحرفٌ واحدٌ عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوه إلاّ بالله العلي العظيم»(٣٥).

وقد تجسَّدت الولاية التكوينية فيهم عليهم السلام، ولنتعرَّض إلى مورد واحد و هو يوم خيبر.

فالذي حقَّقه أمير المؤمنين عليه السلام لا يمكن أن يفسَّر من منظار مادّي، فلولا ظهور الولاية الربّانية والقدرة الإلهية في ذلك الساعد المبارك، فهل كان من الممكن تحريك باب خيبر من مكانه ؟ فضلاً عن قلعه؟ والجدير بالذكر ما ورد عنه عليه السلام حيث قال:

«لمّا عالجت باب خيبر، جعلتُه مجنّاً لي وقاتلت القوم، فلمّا أخزاهم الله وضعتُ البابَ على حصنهم طريقاً ثمّ رميت به في خندقهم. فقال له رجلٌ: لقد حملت منه ثقلاً ؟ فقال: ما كان إلاّ مثل جنّتي التي في يدي في غير ذلك المقام»(٣٦).

وقد ذكر أصحاب السير أنّ المسلمين لمّا انصرفوا من خيبر حاولوا حمل الباب فلم يتمكّنوا حتّى بلغوا السبعين، ومن الواضح أنَّ تلك الكرامة لم تحصل له إلاّ بعد أن تمهَّدت كافة المقدّمات، فالرسول أخبر عن انتصاراته حيث قال:

" لأعطين اللواء غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبه الله و رسوله "

فدعا علياً عليه السلام وهو أرمد فمسح وتفل في عينيه، وعمَّمه بيده، وألبسه ثيابه ثم قال إمض يا علي وجبرئيل عن يمينك، وميكائيل عن يسارك، وعزرائيل أمامك وإسرافيل وراءك، ونصر الله فوقك، ودعائي خلفك.

و أعطاه اللواء، فلقي أهل خيبر فإذا بمرحب يرتجز فاختلفا ضربتين، فبدره عليّ عليه السلام فضربه، فقدَّ الحجر والمِغفر ورأسه حتى وقع في الأضراس(٣٧).

وعندما وصل الخبر بأنَّه عليه السلام قد رمى الباب أربعين ذراعاً قال الرسول صلى الله عليه وآله: «**والذي نفسي بيده لقد أعانه عليه أربعون ملكاً**»(٣٨).

هذا وهو عليه السلام يقول في رسالته لسهل بن حنيف رحمه الله: «**والله ما قلعت باب خيبر و رميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية، ولا حركة غذائية، لكنّي أيِّدت بقوة ملكوتية، و نفسٍ بنور ربِّها مضيئة، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت، ولو أمكنتني الفرصة من رقابها لما بقيت، ومن لم يبال متى حتفه عليه ساقط، فجنانه فى الملمّات رابط**»(٣٩).

المراجع والتوضيحات:

١ - يس٨٣.

٢ - الرحمن ٢٦ - ٢٧.

٣ - القصص ٨٨.

٤ - الحديد ٣.

٥ - النور ٣٩.

٦ - الإسراء ٧٢.

٧ - النور ٣٥.

٨ - وقد شرحنا تفصيلاً، راجع الكلمة ٢.

٩ - الكافي، ج١، ص١٤١، الرواية ٧.

١٠ - نوح ١٦.

١١ - مصباح المتهجد، ص٦٠٢، ص٦٢٩. بحار الأنوار، ج٨٥، ص٢٧١. بحار الأنوار، ج٩٠، ص٥٨.

١٢ - الاقبال، ص٢٩. مصباح الكفعمي، ص٥٧٦. بحار الأنوار، ج٩٧ ص٣٥٩.

١٣ - التوبة ٣٢.

١٤ - الاقبال، ص٢٤٩. بحار الأنوار، ج٩٨، ص٢٢٣ باختلاف.

١٥ - الكافي، ج١، ص١٠٥، الرواية ٣.

١٦ - بحار الأنوار، ج٣، ص٣٢٧.

١٧ - طه ٥٠.

١٨ - الأعلى ٣.

١٩ - الحجر ٢١.

٢٠ - السجدة ٧.

٢١ - الملك ٣.

٢٢ - الأعراف، ٨٥.

٢٣ - الإسراء ٣٥.

٢٤ - الرحمن ٧.

٢٥ - الرعد ١٧.

٢٦ - ومن منطلق هذه الولاية والكرامة الإلهية حيث أن "أكرمكم عند الله أتقاكم" يمكننا أن نتعرَّف على أسرار كثير من العبادات والمعاملات، فالإنسان الأتقى له الولاية على من دونه، حتى لو كان أباه، حيث أنَ وجوده أكمل من غيره فيجب على الغير إطاعته وتبعيته وذلك يعني إطاعة الله، غير أنَّ الإطاعة بالنسبة إلى غير المعصوم محدودة، قال تعالى: "المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" كما أنَّه لاقوّامية للرجل الفاسق على المرأة المؤمنة إلاَّ في مجال المسائل الزوجية، وأمَّا في سائر الأمور الراجعة إلى الشريعة فلا ولاية له عليها. ومن هنا أيضاً تعرف السر في الإسترقاق، حيث أن الكافر المحارب كالحيوان بل هو أضل سبيلاً، فيتعامل معه تعاملَ حيوان فيباع ويُشترى، وكذلك بالنسبة إلى كثير من التشريعات فتأمَّل.

٢٧ - الحكومة الإسلامية ص٥٢.

٢٨ - آل عمران ٢٦.

٢٩ - عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢، ص٢٧٧. بحار الأنوار، ج١٠٢، ص١٣٢، ج١٠٢، ص١٥٥.

٣٠ - النمل ٧٥.

٣١ - يونس ٦١ .

٣٢ - يس١٢ .

٣٣ - السجدة ٢٤ .

٣٤ - الميزان، ج١٤، ص٣٠٤ .

٣٥ - الكافي، ج١، ص٢٣٠، الرواية ١ .

٣٦ - الإرشاد، ج١، ص١٢٨ . بحار الأنوار، ج٢١، ص١٧ .

٣٧ - تاريخ الطبري، ج٣، ص١٢، ١٣ .

٣٨ - الأمالي للشيخ الصدوق، ص٥١٣ . بحار الأنوار، ج٢١، ص١٨ .

٣٩ - الأمالي للشيخ الصدوق، ص٥١٤ . بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٦ .

٥

مرآة ولاية الله

(٥)
مرآة ولاية الله

أسماء الله

إن الله سبحانه وتعالى تجلّى بأسمائه وصفاته في الخلق كما تجلى بألوهيته في القرآن الكريم، حيث أنّ القرآن هو الجامع لجميع صفاته الكمالية وأسمائه الحسنى وفيه تبيان لكلّ شيء.

وكلما كانت الأسماء نابعة عن الذات، كان للتجليات والمظاهر الدوام والبقاء لأنَّ الله هو الباقي قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(١).

و قال تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

ومن ناحية أخرى الاسم الأعظم هو "الله" سبحانه وتعالى وهو الكلمة العليا المشتملة على رموز وأسرار من ناحيتين، لفظيَّة ومعنويَّة، فمن البعد اللفظي هي كلمة دالَّة على تلك الذات المنزَّهة من جميع العيوب، والمتحلِّية بجميع المحاسن، والجدير بالذكر أنَّها باقية على ما عليها من المعنى مهما نقصت من حروفها، فلو كانت كاملة فهي "الله".

قال تعالى:

﴿ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[٣]ولو أخذت الألف منها صارت "لله" قال تعالى: ﴿وَلِلَّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٤] ولو نقصت الألف واللام الأولى صارت "له"قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥] وفي صورة ما لو نقصت الألف واللامان صارت "ه" أو "هو" قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٦] وقال: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾[٧].

فلاحظ السرّ المكنون في هذا الاسم، فهو يدلّ على نفس المسمّى في جميع الحالات وكافة الاحتمالات.

وأما سائر الأسماء سواء أسماء الذات منها أو أسماء الفعل، كالملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن والعزيز والجبار والمتكبر والخالق والباريء والمصور وكالشافي والوافي والمعافي والغفور والرحيم فلكلٌّ واحدة منها شأن ومنزلة رغم أنَّها جميعاً نابعة عن تلك الذات ومظاهر ذلك الواحد الأحد ولذلك نشاهد جملة "هُوَ الله" في موارد ثلاثة قبل ذكر الصفات في قوله تعالى:

﴿هو الله الَّذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ، هُوَ الله الَّذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٨].

وعلم الأسماء من أهم العلوم وأعمقها، ومن خلاله يصل العارف إلى علومٍ لا حدَّ لها ولا حصر، فالكلام عن أسمائه تعالى بالتفصيل يتطلَّب بحثاً مستقلاً لسنا بصدد بيانه في هذا المختصر، فنقتصر بالحديث التالي المنقول في الكافي للمحدِّث الكليني﵀:

«علي بن إبراهيم عن أبيه عن النضر بن سويد عن هشام بن الحكم انه سأل أبا عبد الله﵇ عن أسماء الله واشتقاقها، الله مما هو مشتق قال: فقال لي: يا هشام: الله مشتق من إله والإله يقتضي مألوها والاسم غير المسمَّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد إثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد، أ فهمت يا هشام ؟ قال: فقلت: زدني قال إن لله تسعة وتسعين اسما، فلو كان الاسم هو المسمَّى لكان كلّ اسم منها إلهاً، ولكن الله معنىً يدل عليه بهذه الأسماء، وكلُّها غيره، يا هشام: الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتخذين مع الله جلّ وعزّ غيره قلت: نعم قال: فقال: نفعك الله به وثبتك يا هشام، قال هشام فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا»(٩).

الولي إسم شامل

الولي هو اسم من أسماء الله الشامل لجميع الأزمنة، والمحيط على جميع الموجودات، وقد وصف الله نفسه بالولي في آيات كثيرة قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٠).

﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١١).

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١٢).

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّه مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(١٣).

بخلاف كلمة الرسول فهي ليست من أسماء الله، بل عندما يبعث سبحانه رسولا إلى أمّة من الأمم، فحينئذ يتصف ذلك الشخص المرسَل بهذه الصفة. فالرسالة ليست من مظاهره سبحانه، تلك المظاهر التّي لها الاستمرارية والأبديّة.

ومن هذا المنطلق اختُتمت الرسالة دون الولاية، فهي أبدية، ولها الاستمرارية والبقاء.

ومن هذا المنظار تكون الولاية أعظم من الرسالة والنبوّة، وأشمل منهما، وبطبيعة الحال هي أفضل، وإنّما صار الرسول الأكرم ﷺ هو الأفضل من سائر الأنبياء والأولياء فلأنَّه تحلَّى بكلا المقامين، فهو ﷺ وليٌّ مطلق ثمَّ رسول خاتم.

الولايـة والحكـم لله

الولاية بالأصالة إنّما هي لله تعالى، حيث أنه هو الخالق الموجد للكون بإرادته الأزلية:

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١٤).

ومن هذا المنطلق صارت الولاية لله:

﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ...﴾(١٥).

والحكم لله:

﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ (١٦).

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(١٧).

والعزَّة لله جميعاً:

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(١٨).

وكل من يريد أن يتولى الآخرين لابدَّ وأن يكتسب الشرعية منه تعالى، وإلا فلا اعتبار لولايته أصلا، وحيث لاولاية، فلا قدرة ولا قوة ولاعزَّة.

ولايـة الأنبيـاء

هناك عدد خاص من الأنبياء قد اكتسبوا الولاية من الله عزّ وجلَّ، وذلك في إطار خاص حسب مرتبة النبي لاختلاف مراتبهم:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... ﴾(١٩).

داود عليه السلام خليفة الله

إنَّ الله سبحانه يخاطب داود النبي بقوله:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾(٢٠) فكان هو نبياً لأنَّ الله خاطبه قبل أن يتحلَّى بمنصب الخلافة الإلهيّة، فلم يؤذن له أن يحكم بين الناس إلاّ بعد وصوله إلى هذه المرتبة، ومن هنا نشاهد أنّه سبحانه يُفرِّع الحكم على الخلافة بقوله:

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

إمامة إبراهيم عليه السلام

قال تعالى:

﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢١).

و لم تكن هذه الابتلاءات هينة، بل كانت شاقةً للغاية، فبعد إتمامها أصبحت نفس إبراهيم مهيأة لقبول تلك المرتبة السامية، أعني الإمامة والولايــة.

إبراهيم محطم الأصنام

ولأهمية هذا الامتحان ينبغي لنا أن نتحدّث عنه شيئاً فنقول:

بعد أن أتى إبراهيم الخليل ربَّه بقلب سليم وفطرة صافية سأل قومه مستغرباً ومتعجباً:

﴿مَاذَا تَعْبُدُون﴾[٢٢] وهذا النوع من الاستغراب أمر طبيعي، حيث أنَّ الشرك هو أمر غريب عن فطرة الإنسان وهو إفك وبهتان، ومن هنا قال:

﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُون فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٣].

فكيف يواجههم ليُقنعهم ؟!

لا توجد طريقة غير الكف عن الجدال معهم، فالحلّ الإلهي الأمثل يتطلب الخلوة بالذات والتصدي لهذا الإفك المبين:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٢٤]

فلا أقدر الخروج معكم والمشاركة في عيدكم، وربما استدلَّ بالنظر في النجوم على وقت حمى كانت تعتريه " فَقَا لَ إِنِّي سَقِيمٌ " وأراد من ذلك أنَّه قد حضر وقت السقم وقرب نوبة العلَّة، فكأنه قال إني سأسقم لا محالة وحان الوقت الذي يعتريني فيه الحمى، وقد يسمى المشارف للشيء باسم الداخل فيه، قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٢٥].

وشاهد ذلك أنَّ القوم كانوا يعتمدون على النجوم كثيراً، فقد ورد في شأنه:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢٦).

فهو عليه السلام انطلق من ذات المبدأ الذي يعتقدون به ليجرُّهم إلى التوحيد "**فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ**" وخلَّفوه في المدينة وحيداً فاغتنم هذه الفرصة الذهبية "**فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ**" وذلك بالغيظ والسخرية "**فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ**" وأراد منهم أن يأكلوا تلك الأطعمة والثمار التي عرضت عليهم من قبل الجهلة، وجعلت أمامهم في أيام العيد "**مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُون**" وهاهنا يأتي دور الحركة والفعل بدلاً من القول "**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**" أي يسرعون الخطى، فجعل يصرخ في وجه هؤلاء المشركين ويخاطبهم بقوة البيان وجرأة المواجهة "**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**" وهل يكون المصنوع المنحوت خالقاً ليكون ربًا ؟ "**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**" فكل وجودكم حتَّى أعمالكم التَّي هي من عوارض وجودكم ومن شؤونه مخلوقة لله تعالى "**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**" فهم عزموا على قتل إبراهيم ومحو ذكره ليجعلوه من الأسفلين، "**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ**".

هذا بداية ما امتحن به إبراهيم عليه السلام، ثم توالت الامتحانات، وكان من أشدها الأمر الإلهي بذبح ابنه اسماعيل الذي كان عطاء الله له في الكبَر استجابة لدعائه، ثمَّ الهجرة إلى وادٍ غير ذي زرع، وبناء البيت حيث يقول:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٢٧).

فبعد نجاحه عليه السلام وإتمامه لجميع تلك الكلمات قال تعالى مخاطبا له:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢٨).

وفي حديث الكافي:

«محمد بن سنان عن زيد الشحام قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتَّخذه نبيّاً، وإن الله اتخذه نبيّاً قبل أن يتَّخذه رسولا، وإن الله اتَّخذه رسولا قبل أن يتَّخذه خليلاً، وإن الله اتَّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء، قال: إنّي جاعلك للناس إماماً. قال عليه السلام: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ومن ذرِّيتي! قال: لا ينال عهدي الظالمين»(٢٩).

عصمة الإمام

فكلّ من يصدر منه ذنب صغيراً كان أو كبيراً فهو ظالم لنفسه، هذا في غير الإمام أما لو كان إماماً فهو ظالم لنفسه ولغيره ممن يأتمّ به، بالإضافة إلى أنّ الأمّة سوف تفقد حينئذ الاطمئنان به، فلا يمكن أن يصدر من الإمام ذلك، لأن فيه نقضاً للغرض الذي من أجله نُصب الإمام، وهو محال في حقه تعالى.

وأيضاً لا يمكن أن يتصور صدور الذنب منه حتى في الخفاء، لأن الذنب ينقص من شأن الإنسان ويورث حزازة فيه، فلا تكون فيه الأرضية لتقبّل الوحي أو الإلهام أو الكراة، فالإمامة ليست هي إلاّ انعكاساً لصفاتِ الله الجمالية والجلالية في مرآة قلب الإنسان الكامل.

وكذلك بالنسبة إلى الأفعال الأخرى التي لم تصل إلى مرحلة الذنب فالميزان فيها هو الاطمئنان، فكلُّ أمر يوجب سلب اطمئنان الناس عنه فمن المحال صدوره من المعصوم، وأمّا مالا يؤدِّي إلى سلب الاطمئنان فلا مانع من إتيانه، وإن كان ظاهره عملاً لا يُرغب فيه، وعلى ضوء ذلك صارت درجات الأنبياء متفاوتة.

محمد ﷺ ولي ورسول

وأمّا ولاية نبيّنا محمد ﷺ فهي الولاية العظمى على جميع الخلق، آدم فمن دونه حيث أنّ:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾(٣٠).

فمادام هو ولياً على أنفس الناس، فولايته عليه السلام على أموالهم وسائر شؤونهم بطريق أولى، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾(٣١).

أنظر إلى شدَّة التعبير في الآية الكريمة، فلا خيرة للمؤمنين في قبال قضائه عليه السلام، وعصيانه هو عصيان الله وهو الضلال المبين. وقال:

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٣٢).

وفي هذه الآية ثلاثة مراحل مترتِّبة:

١ - أن يكون الرسول هو الحَكم لا غيره.

٢ - أن يتقبَّل المؤمن بكلّ ما حَكم به الرسول من صميم قلبه وعمق ذاته.

٣ - أن يُسلّم أمره إلى الرسول ولا يتخطى عن أمره مثقال ذرّة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٣٣).

علي عليه السلام هو الولي

مضافاً إلى النفس القدسية والصفاء المنقطع النظير، والأرضية المميّزة الكامنة في شخصيَّة أمير المؤمنين عليه السلام التّي تفضّله على جميع الأنبياء والأوصياء ما عدا خاتمهم.

و هناك أدلّة نقلية كثيرة من الكتاب والسنة تثبت صحة ما نذهب إليه، فآية الولاية والإطاعة والبلاغ والسؤال وكثيرٌ من الآيات، وأيضاً حديث المنزلة والسفينة ومئات من الأحاديث هي من أعظم الأدلَّة على أنّه هو الوليّ المطلق بعد الرسول ﷺ، ولوضوح دلالتها ومضمونها لم نتطرق إليها هاهنا، إلاّ أننا نحاول أن نتوسَّع شيئاً ما في خصوص حديث الغدير وبعض من الآيات التي نزلت في شأن تلك الواقعة العظيمة، وقد أفردنا له عنواناً خاصاً وهو النعيم الإلهي.

المراجع والتوضيحات :

١ - الرحمن ٢٦، ٢٧.

٢ - القصص ٨٨.

٣ - البقرة ٢٥٥.

٤ - آل عمران ١٨٩.

٥ - البقرة ١١٦.

٦ - البقرة ٣٧.

٧ - الاخلاص ١.

٨ - الحشر ٢٢-٢٤.

٩ - الكافي، ج١، ص٨٧، رواية٢.

١٠ - آل عمران، ٦٨.

١١ - البقرة ٢٨٦.

١٢ - التوبة ٥١.

١٣ - الانفال ٤٠.

١٤ - يس ٨٢.

١٥ - الكهف ٤٤.

١٦ - الانعام ٥٧.

١٧ - المائدة ٤٧.

١٨ - فاطر ١٠.

١٩ - البقرة ٢٥٣.

٢٠ - ص٢٦.

٢١ - البقرة ١٢٤.

٢٢ - الصافات ٨٥ .

٢٣ - الصافات ٨٦، ٨٧ .

٢٤ - الصافات ٨٨، ٨٩ .

٢٥ - الزمر ٣٠ .

٢٦ - الأنعام ٧٥ - ٧٩ .

٢٧ - إبراهيم ٣٧ .

٢٨ - البقرة ١٢٤ .

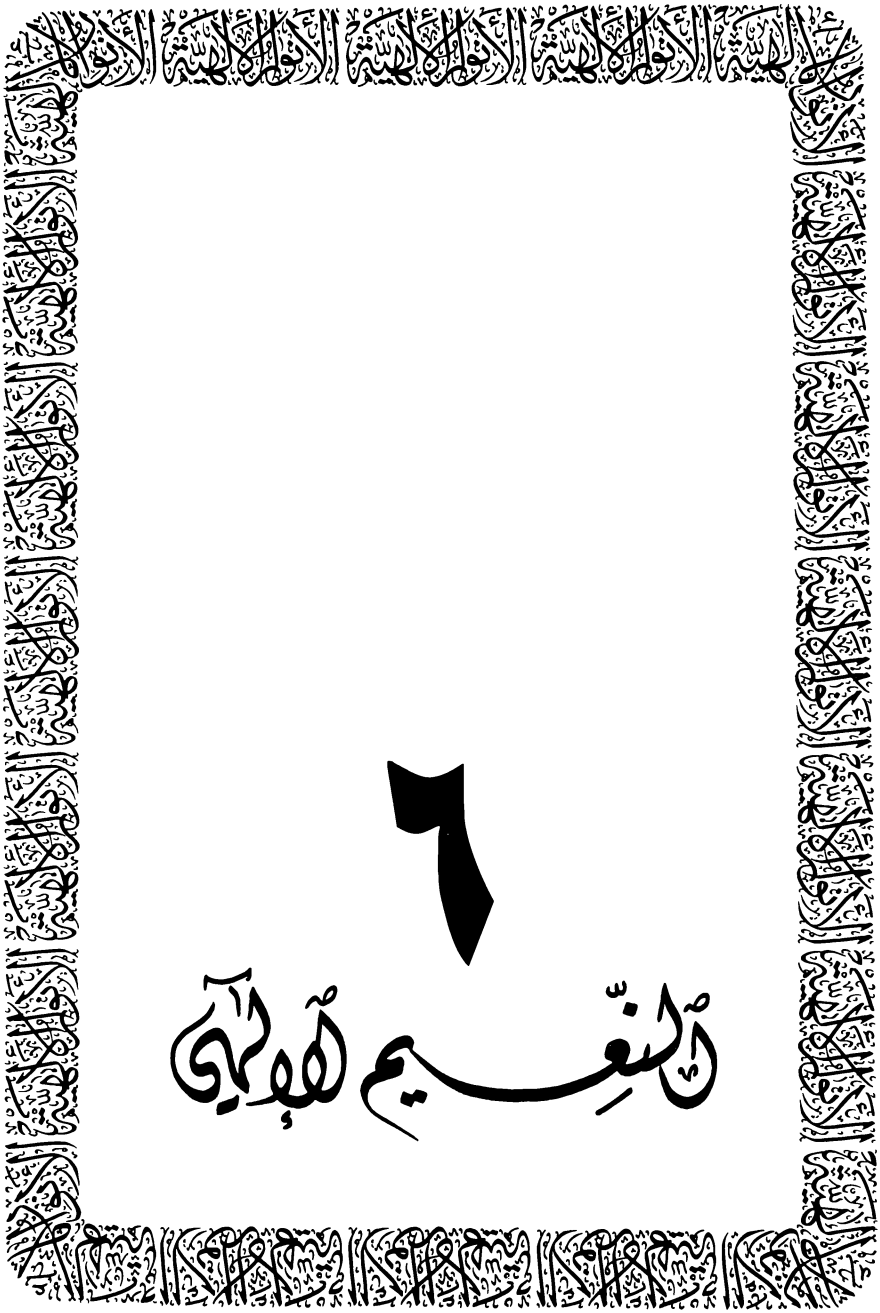
٢٩ - الكافي، ج١، ص١٧٥ . بحار الأنوار، ج١٢، ص١٢ .

٣٠ - الأحزاب ٦ .

٣١ - الأحزاب ٣٦ .

٣٢ - النساء ٦٥ .

٣٣ - النساء ٥٩ .


٦
النعيم الإلهي

(٦)
الغدير

إنَّ حديث الغدير، متواتر بين العامّة والخاصة وقد نُقل بأسانيد كثيرة جداً حتَّى صارت واقعة الغدير كبعثة الرسول الأكرم ﷺ من حيث الأهمية والوضوح. وقد ورد الحديث في أكثر كتب العامَّة[١]، نكتفي بالتالي:

في مسند أحمد بن حنبل:

«حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا علي بن زيد عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، فصلى الظهر وأخذ بيد علي عليه السلام فقال: ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّي أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا: بلى، قال: فأخذ بيد عليٍّ، فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه: قال: فلقيه عمر بعد ذلك، فقال: هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كلِّ مؤمن ومؤمنة»[٢].

وفي سنن ابن ماجة: **«عن سعد بن أبي وقاص قال: قدم معاوية في بعض حجّاته فدخل عليه سعد، فذكروا علياً فنال منه، فغضب سعد**

وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول "من كنت مولاه فعلي مولاه" وسمعته يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي". وسمعته يقول: "لأعطين الراية اليوم رجلاً يحبّ الله ورسوله"»[٣].

وفي سنن الترمذي بإسناده:

«عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، فقال: كأني قد دُعيت فأجبت إنِّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي فأنظروا كيف تخلِّفوني فيهما فإنَّهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. ثمَّ قال: إن الله عزّ وجل مولايَ وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فهذا وليُّه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»[٤].

وذكر الحديث بطوله.

ولم يقتصر صدور هذا النص من الرسول في غدير خم، بل صدر منه في مواقع عديدة نكتفي بواحدٍ منها من طرق غيرنا.

ففي مستدرك الحاكم:

«حدّثنا الفضل بن دكين حدّثنا ابن أبي غنّية عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس عن بريدة قال: غزوت مع عليَّ اليمن، فرأيت منه جفوة، فلمَّا قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليّا فتنقَّصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال: يابريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قلت: بلى يارسول الله، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه»[٥].

ثمَّ إنَّ الخطيب البغدادي قال في تاريخه:

أنبأنا عبدالله بن محمد بن بشران، أنبأنا علي بن عمر الحافظ، حدثنا أبو نصر حبشون بن موسى الخلال، حدثنا علي بن سعيد الرملي، حدثنا ضمرة بن ربيعة القرشي، عن ابن شوذب، عن مطر الورّاق، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، قال:

«من صام يوم ثمان عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدير خم، لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألست ولي المؤمنين؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه. فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك ياابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم. فأنزل الله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾».

وقال: أخبرنيه الأزهري، حدثنا محمد بن عبدالله بن أخي ميمي، حدثنا أحمد بن عبدالله بن أحمد بن العباس بن سالم بن مهران المعروف بابن النيري - إملاء - حدثنا علي بن سعيد الشامي، حدثنا ضمرة بن ربيعة القرشي، عن ابن شوذب، عن مطر الورّاق، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: **من صام يوم ثمانية عشر من ذي الحجة**، وذكر الخبر مثل ماتقدم أو نحوه. وأخرجه الحافظ ابن عساكر بطريقة إلى أبي بكر الخطيب، وأخرجه بالإسناد عن أبي بكر الخطيب ابن الجوزي في العلل الواهية، حيث قال: أخبرنا أبو منصور القزاز، أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت... الخ[٦]. والحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل والعاصمي في زين الفتى والمرشد بالله الشجري في الأمالي من طريقين والخطيب

الخوارزمي في مناقبه والحافظ الجويني في فرائد السمطين والحافظ ابن المغازلي في المناقب، والحافظ أبوالحسين عبدالوهاب الكلابي المعروف بابن أخي تبوك في مسنده، والبلاذي في أنساب الأشراف والحافظ ابن عدي الجرجاني في كامله، ومحمد بن سليمان الكوفي في المناقب، والحافظ أبوالقاسم الطبراني في المعجم الأوسط والصغير.

وأخرجه الحافظ أبوبكر بن أبي شيبة في المصنف قال: حدثنا شريك عن أبي يزيد الأودي، عن أبيه، قال: دخل أبوهريرة المسجد، فاجتمعنا إليه فقام إليه شاب، فقال: أنشدك بالله، أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول:

«**من كنت مولاه فعلي مولاه، اللَّهم وال من والاه، وعاد من عاداه؟ قال: نعم، فقال له الشاب: أنا منك برئ، أشهد أنك قد عاديت من والاه، ووليت من عاداه. قال فحصبه الناس بالحصا**».

وفي الأمالي للمرشد بالله الشجري: «**فقال له الناس** (أي للفتى) **أسكتْ أسكتْ**».

وذكر أبن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة الخبر مع بعض الاختلاف في التعبير.

ألست بربكم

فلنسط الضوء على واحدة من أهم مفردات الحديث وهو قوله ﷺ:

«**ألست أولى بكم من أنفسكم**» أو «**ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم**».

وأنت إذا تأملت فستلاحظ أنَّ لسان هذا المقطع المهم من الحديث، يساوق لسان الآية الكريمة التالية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(٧).

إنَّ الله سبحانه وتعالى ومن منطلق ربوبيته للرسول الأكرم ﷺ **(ربك)**، طلب من بني آدم الاعتراف بربهم والتسليم له، وأشهدهم على أنفسهم كي لايُنكروا هذه الحقيقة، ومن الطبيعي أن يقرَّ العبد بالعبودية لربِّه، ومن المعلوم أنَّ الرسول لاينطق عن الهوى، فكل مايصدر منه إنَّما هو طبقاً لما يوحى إليه حتى استخدامه للكلمات، وأسلوب تكلُّمه وسياق خطبه ووصاياه، فإنّنا نشاهد نفس المضمون قد صدر منه ﷺ في الغدير، فبعد أن أخذ الاعتراف والإقرار من الناس بالنسبة إلى نبوَّته وأولويته من أنفسهم، قال: لابدَّ من قبولكم ولاية عليٍّ عليه السلام الذي خلَّفتْه السماء عليكم من بعدي، وكان يؤكِّد على كلمة **(اللَّهم اشهد)** إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجَّة. فالقضيَّة إذاً ليست مما يمكن التغاضي عنها وجعلها في طيِّ النسيان، بل تتعلقَّق بأصل خلق الإنسان وفلسفته الوجوديَّة، حيث أنَّ الوصاية ماهي إلا استمرارٌ للنبوَّة التي هي مظهر حاكميّة الله على الإطلاق، ولو أردنا أن نصل إلى عمق هذه الحادثة فينبغي لنا أن نتأمَّل في الآيات النازلة بشأنها فهي: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**(٨).

يا أيها الرسول

إنَّ نبينا محمداً ﷺ قد نودي في الذكر في تسعة عشر مورداً، وذلك بتعبيرات أربعة، والملاحظ أن الله سبحانه لم يخاطبه باسمه كما خاطب سائر الأنبياء بل في ثلاثة عشر مورداً يخاطبه بقوله: "**ياأيها النبي**" وفي موردين يخاطبه "**ياأيها الرسول**" وهناك خطابات أخر مثل "**ياأيُّها المُزَّمل**" "**ياأيُّها المدَّثر**" وقوله "**طه**" "**يس**" على ما في أحاديثنا.

فبالنسبة إلى النداءات التي تخاطب النبي "**يا أيُّها النبي**" فإنّها تتمحض في سور "الأنفال والتوبة والأحزاب والممتحنة والتحريم" وتنحصر في أمرين:

أ: مايتعلق بالجهاد في سبيل الله.

ب: مايتعلَّق بنساء النبيّ.

والجدير بالذكر أنَّ الموردين اللذين قد خاطب الله فيهما نبينا بقوله "**ياأيُّها الرسول**" كليهما متعلقان بالولاية والإمامة.

والآتيان في سياق واحد من حيث أنَّ هناك من يحارب الولاية ويقف دون تحققها في المجتمع. فالله سبحانه لأجل ذلك يواسي رسوله ويسليه، كي يحقق الهدف السامي الذي بُعث لأجله.

فأمّا قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَابلغت رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾[٩] فهو يتعلَّق بواقعة الغدير المتواترة

لدى الفريقين.

وأما قوله سبحانه:

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾(١٠).

فهناك حديث دالٌّ على أنَّها تختصُّ بالولاية، وهذا نصُّه:

«عن تفسير علي بن إبراهيم القمِّي عن الإصفهاني، عن المنقري، عن شريك عن جابر، قال: قرأ رجلٌ عند أبي جعفر عليه السلام، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة، قال: أمّا النعمة الظاهرة فهي النبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده، وأمّا النعمة الباطنة فولايتُنا أهل البيت، وعقد مودتنا فاعتقدَ والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة، واعتقدها قوم ظاهر ولم يعتقدوها باطنة.. فأنزل الله:

"يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ"(١١) ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزولها إذ لم يقبل الله تبارك وتعالى إيمانهم إلا بعقد ولايتنا ومحبتنا»(١٢).

ومن الواضح أنَّ الخطاب بقوله "**يا أيُّها الرسول**" في الآيتين بدلاً عن سائر الصفات هو دليل على أنَّ الرسالة هي التي لها هذا الاقتضاء وأنَّ تبيين الولاية هي أهم أهداف الرسالة.

وفي خصوص آية التبليغ، قد صرَّح سبحانه بقوله:

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(١٣)

فالرسالة هي شأن آخر لها جانبان:

١ - جانب ربوبي.

٢ - جانب خلقي.

فربُّ العالمين يربِّي الأمَّة -على مرِّ الزمن- بواسطة الرسول بما هو رسول ويهديهم تشريعاً وتكويناً أعني الهداية بالأمر.

وعلماً بأنّه كان خاتم الأنبياء والمرسلين فلو لم يبلِّغ رسالته بتنصيب الإمام، لم يتحقق الغرض من رسالته، كيف والولاية هي من صميمها.

ومن هنا نعرف السرَّ في تعبير القرآن بقوله: "**لقد منَّ**" بصيغة الفعل الماضي الدال على المُضي والانقضاء، حيث أنَّ الرسالة قد ختمت به صلوات الله عليه وآله:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١٤).

وأمّا بالنسبة إلى الإمامة فهي مستمرَّة لانهاية لها ولا انقضاء إلى يوم القيامة، حيث أنَّها تتمثَّل في الإنسان الكامل الّذي هو النور الذي لازوال له، لأنَّه مظهر النور المطلق وهو الله سبحانه وتعالى ولهذا جاءت كلمة المنَّة بنحو الفعل المضارع الدال على الاستمرار والدوام في قوله:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(١٥).

فمن أولويات شئون الرسالة هو تعريف الإمام وتنصيبه للناس، الذي من خلاله تنزل الفيوضات الإلهيَّة وسوف يبقى الوحي من ربِّ العالمين مستمراً.

ولهذا نشاهد العلاقة الوثيقة بين الإمامة والرسالة المحمَّدية كما دلت عليها أحاديث كثيرة فالإمام هو:

«سليل الرسالة - معدن الرسالة - موضع الرسالة - مفاض الرسالة - محكم الرسالة - محطّ الرسالة - رواسي الرسالة - أهل بيت الرسالة - فيهم نزلت الرسالة - أحق الخلق بسلطان الرسالة - مودتهم أجر الرسالة».

فيستفاد من الآية الكريمة الأمور الآتية:

١ - من وظائف الرسول ﷺ، إبلاغ الوحي الإلهي في جميع جوانبه وزواياه.

٢ - هناك رسالة مميَّزة قد أُمر رسول الله بإبلاغها للناس، وليس المقصود الشريعة بأجمعها لأنّه لامعنى حينئذٍ لقوله "فإن لم تفعل فما بلغت رسالته".

٣ - إنَّ تلك الرسالة الخاصَّة تُضاهي جميع الأمور الأخرى التي بيَّنها الرسول خلال حياته، بل هي الرسالة بعينها.

٤ - إنَّ تنصيب عليٍّ عليه السلام إماماً للمؤمنين هو الحكم الإلهي النازل على الرسول في ذلك اليوم.

٥ - عدم تبيين تلك الرسالة تعني عدم تبليغ الرسالة من الأساس.

٦ - ينبغي للرسول أن يتَّخذ خطة عمليَّة يتمكن -من خلالها- إبلاغ

الرسالة الخاصة وذلك لمكان قوله تعالى: "**فإن لم تفعل**" ولهذا لم يكتف رسول الله ﷺ بالإبلاغ فحسب بل طلبَ من الناس رجالاً ونساءً المبايعة العملية لعلي عليه السلام.

وفي الحديث:

«... **وأمر علياً عليه السلام أن يجلس في خيمة له بإزائه، ثم أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنؤه بالمقام ويسلِّموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلّهم، ثمَّ أمر أزواجه وجميع نساء المؤمنين معه أن يدخلن عليه ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن...**»(١٦).

٧ - كانت هناك مؤامرة تواجه الرسول من قِبَل بعض الناس إزاء تبليغ هذه الرسالة المميَّزة، فأخبره الله سبحانه بأنَّه هو المتكفِّل للقضاء على هذه المؤامرة الخطيرة حيث يقول: "**والله يعصمك من الناس**".

٨ - هؤلاء المتآمرون بوقوفهم ضد رسالة الرسول وإنكارهم الولاية جُعلوا في عداد الكفّار بدليل "**والله لايهدي القوم الكافرين**" فكلَّ من يقف ضدَّ الولاية، فقد دخل في زمرة الكافرين وابتلى بالعذاب الأليم.

التقية بعد نزول الآية

إنَّ الظاهر من الآية المباركة أنه ﷺ كان يعيش التقيَّة في أمر الولاية قبل نزولها وأمَّا بعد نزولها فانتفت التقيَّة، ويشهد لذلك الحديث التالي:

«**الحسين بن أحمد البيهقي عن محمد بن يحيى الصولي عن سهل بن القاسم النوشجاني قال: قال رجل للرضا عليه السلام يا ابن رسول الله إنه يروى**

عن عروة بن الزبير أنَّه قال: توفي النبي ﷺ وهو في تقية؟ فقال: أما بعد قول الله عزّ وجلّ "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس" فإنَّه أزال كلَّ تقيةٍ بضمان الله عز وجل له وبيّن أمر الله»(١٧).

ومن اللازم ها هنا أن نجيب على السؤال التالي وهو: ماهو الضرر الذي كان يواجه الأمّة لولا التبليغ؟ وهل كان رسول الله يحافظ على نفسه كي يخاطبه الله بقوله "**والله يعصمك من الناس**"؟.

كيف وهو المخاطب بقوله:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(١٨).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«كنّا إذا احمر البأس إتقينا برسول الله ﷺ، فلم يكن أحد منا أقربَ إلى العدوِّ منه»(١٩) كلُّ ذلك كان قبل فتح مكّة وأمّا بعد الفتح، فقد اتَّسعت قدرة الإسلام وقويت شوكته، فلاخوف من الناحية العسكرية، فممَّ كان الخوف؟

نقول في الجواب:

إنَّ الخوف كان من جانب آخر أهمّ، وهو الجانب السياسي، ذلك لأنَّ موضوع الولاية كان مهماً وحساساً للغاية، حيث يثير الأحقاد القبلية، والضغائن البدرية والخيبرية الكامنة في صدور القوم، وحيث

التخطيط الدقيق المركَّز لتصاحب الخلافة بعد الرسول، والتسلُّط على رقاب المسلمين، وهذا من أهم المخاطر التي كانت تواجه الإسلام، ولكنَّ القوم فوجئوا بالغدير فيَئسوا من نجاح خطَّتهم ضدّ الإسلام، كما يشهد بذلك التأريخ وهذا مايستفاد من الحديث التالي:

«عن المفضل بن صالح، عن بعض أصحابه عن أحدهما قال أنَّه: لما نزلت هذه الآية "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا" شقَّ ذلك على النبي ﷺ، وخشي أن يكذِّبه قريش، فأنزل الله "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الآية" فقام بذلك يوم غدير خم»(٢٠).

أهمية هذا التبليغ

إنَّ أهمية هذا الأمر قد وصل الذروة، حيث ورد في الحديث عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام في حديث طويل عن رسول الله ﷺ مخاطباً لعليٍّ عليه السلام قال:

«لقد أنزل الله عز وجل إلى "ياأيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربِّك يعني في ولايتك ياعلي، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" ولو لم أبلِّغ ما أُمرتُ به من ولايتك لحبط عملي»(٢١).

ولايخفى أنَّه من المستحيل أن يخالف الرسول ربَّه في هذا الأمر، ولكن يدلُّ ذلك على الأهميَّة الكبيرة لتبليغ ما أنزِل إليه من ربِّه، وهو تعيين أمير المؤمنين عليه السلام خليفةً على المسلمين.

وتأييداً لذلك نذكر حديثاً في هذا المجال:

«علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحكم بن بهلول عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" (٢٢)، قال يعني إن أشركت في الولاية غيره، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين يعني بل الله فاعبد بالطاعة وكن من الشاكرين أن عضدتك بأخيك وابن عمك»(٢٣).

والجدير بالذكر أنَّ سورة محمد صلى الله عليه وآله قد بيَّنت -بصورة صريحة- النتائج السلبيَّة التِّي تترتَّب على إنكار الولاية أو كراهتها، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾(٢٤).

ونذكر هاهنا حديثاً يتعلق بالآية الأولى: «عن أحمد بن القاسم، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن خالد، عن محمد بن علي، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: نزل جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله بهذه الآية: "ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله" في عليٍّ عليه السلام إلا أنه كشط الاسم، فأحبط أعماله»(٢٥).

ثمَّ إنَّه ومن خلال هذا البحث سوف نواجه أمراً آخر نجعله تحت عنوان:

ما أنزل إليك

عند التأمُّل في الآية ٦٦ من سورة المائدة التِّي جاءت قبل آية التبليغ، تنفتح أمامنا زاويةٌ يمكن من خلالها أن نعرف مدى خطورة أمر الولاية ودورها في حياة المجتمع المعنوي والماديِّ حيث يقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾(٢٦).

فهناك ارتباط وثيق بين إقامة ما أنزل من ربِّ العالمين وبين نزول البركات السماوية والأرضيَّة على الأمَّة.

ومن هنا نعرف السرّ في كلام الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام عند بيانها الأعوجاج الذي حدث في الإسلام حيث قالت في مخاطبتها نساء المهاجرين والأنصار:

«والله لو تكافّوا على زمام نبذة رسول الله صلى الله عليه وآله لاعتلقه، ولسار بهم سيراً سُجُحاً، لايكلم خشاشه، ولايتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً، تطفح ضفّتاه ولأصدرهم بطاناً، قد تحيَّر بهم الري غير متحلّ منه بطائل إلاّ بغمر الماء وردعة شررة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض»(٢٧).

وفي الحديث: **«عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حماد بن عيسى، عن ربعي بن عبدالله، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ولو أنَّهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم،**

قال: الولاية»[٢٨].

وأيضاً وردت أحاديث كثيرة في تفسير قول تعالى:

﴿وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[٢٩].

منهـــا:

«عن أحمد بن مهران، عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني، عن موسى بن محمد، عن يونس بن يعقوب، عمن ذكره، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: "وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" قال: يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أي طالب أمير المؤمنين، والأوصياء من ولده عليهم السلام، وقبلوا طاعتهم في أمرهم، ونهيهم لأسقيناهم ماءاً غدقاً، يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء»[٣٠].

وفي قبال ذلك نشاهد أنَّ الفساد بدأ من اللحظة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله كما في الحديث التالي:

«عن محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن النعمان، عن ابن مسكان عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله عزّ وجلّ: "ظَهرَ الفَسَادُ في البرِّ والبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي الناس" قال: ذاك والله حين قالت الأنصار: منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ»[٣١].

وعلى ضوء ذلك يمكننا معرفة السرّ في آية إكمال الدين وإتمام النعمة وهي:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾(٣٢).

موقع الآية في المصحف

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣٣).

والمقطع المتعلِّق بحادثة الغدير غير منسجم مع الآية من ناحية المعنى أصلاً، وهذا لايعني أنَّه قد وُضع في غير موضعه، حيث أنَّ هناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم من هذا القبيل، وسوف نتطرَّق إلى هذا الأمر عند شرح آية التطهير إن شاء الله. والأمر راجع إلى الجانب الفني في القرآن الكريم، حيث أنَّه كتابٌ لهداية الناس بأفضل الأساليب والطرق، وهاهنا نقول:

حفاظاً على النصوص الواردة في حقِّهم عليهم السلام لكثرة المؤامرات والخطط ضدّ كل أمر يمت إليهم بصلة، نشاهد أنه قد وردت هذه النصوص في مواضع خاصة حين نزول القرآن، أو أدرجها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بأمر الحكيم جلّ وعلا ضمن آيات بعيدة كل البعد عن تلك

الأمور، والمتدبِّر في تلك الآيات سوف يعرف المقصود من غير شبهة. وأمّا الذي في قلبه مرض فيغض النظر عن التفكير في إزالتها فيحاول تحريف محتواها بزعم وجود قرائن مقالية محيطة بها كما فعل القوم، ومن تلك الآيات هي آية الغدير التي هي مورد بحثنا.

وهناك شواهد كثيرة تدلُّ على أنَّ الآية غير متعلقّة بالمحرَّمات، نذكر بعضَها:

١ - سياق الآية: حيث نشاهد أنَّها غير كاملة إلا بمجيء المقطع الأخير منها وهي قوله "**فمن اضطرّ... الخ**»، والدليل على ذلك وجود آيتين مشابهتين لها، أحدهما في سورة البقرة، والثانية في سورة النحل وهما:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣٤).

وأيضاً الآية التالية:

﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣٦).

وهذا دليل على أنَّ ذلك المقطع غير متعلق بما قبله ومابعده.

٢ - إنَّ الآية تقول "**اليوم يئس الذين كفروا عن دينكم**..." ولو كان اليأس لأجل تلك الأحكام الخاصة، أعني تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها، فهي غير مختصَّة بهذا اليوم الذي نُزلت فيه الآية، بل تلك الأحكام وردت في آيات أخرى أيضاً، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل

على أنَّ يأس الذين كفروا عن الدين، إنَّما هو لأجل أمر آخر أهم وهو "**إعلام الولاية وتبليغها بصورة واضحة**".

قال: الراغب الإصفهاني في المفردات:

"**كمل: كمال الشيء حصول مافيه الغرض منه، فإذا قيل كمل ذلك فمعناه حصل ماهو الغرض منه**".

"**تمام: تمام الشيء انتهاؤه إلى حد لايحتاج إلى شيء خارج عنه والناقص ما يحتاج إلى شيء خارج عنه... قال تعالى "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ". "وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ". "وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ".**

قال إمام الأمَّة ﷺ:

"**كمال الشيء مابه تمامه وانجبر به نقصانه... فالصورة كمال الهيولى، والفصل كمال الجنس، ولهذا عرّفت النفس بأنّها كمال أول لجسم طبيعي آلي، إذ بها كمال الهيولي بأعتبار، وكمال الجنس باعتبار. ولهذا كانت الولاية العلوية أدامنا الله عليها كمال الدين وتمام النعمة، لقوله: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" وقال أبوجعفر ﷺ في ضمن الرواية المفصلة في الكافي: ثم نزلت الولاية وإنَّما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة أنزل الله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" وكان كمال الدين بولاية علي بن أبي طالب، انتهى.**

فسائر العبادات بل العقايد والملكات بمنزلة الهيولي والولاية صورتها وبمنزلة الظاهر وهي باطنها، ولهذا من مات ولم يكن له إمام فميتته، ميتة

الجاهلية وميتة كفر ونفاق وضلال، كما في رواية الكافي، فإن المادة والهيولي لاوجود لهما إلاَّ بالصورة والفعلية، بل لا وجود لهما في النشأة الآخرة أصلاً، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان، وهي دار الحصاد، والدنيا مزرعة الآخرة".

أهمية الولاية

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون بإرادته المطلقة، فهو الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، فجميع الأشياء فقيرة إليه في ذاتها وهو الغني المطلق الذي له حكومة تكوينية على الموجودات جميعاً، وبهذا قد ظهرت أسماؤه الحسنى في الكون.

ومن أسمائه تعالى: "**الحاكم**" وله جانبان، تكويني وتشريعي، فالجانب التكويني منه ظاهر، وأما الجانب التشريعي فلايظهر إلا من خلال تطبيق الأحكام الإلهيَّة في المجتمع وهذا لايتحقق إلا بالولاية.

توضيح ذلك:

إنَّ الولاية ليست مسألة قلبية فحسب، بل هي أمر عملي خارجي له دور أساسي في تطبيق سائر الأحكام الإلهية، لأنَّ الدين له جانبان، جانبٌ يتعلَّق بالله وهو الجانب التشريعي منه، وجانب يرجع إلى الناس وهو الجانب التنفيذي منه. فالتشريع مهما كان دقيقاً ومتقناً وكان ذا قدسيَّة واعتبار، إلاَّ أنه يبقى في عالمه (أعني عالم التشريع) مادام لم يصل إلى مرحلة العينية والمصداقية. فمن الضروري أن تُنزَّل الشريعة في المجتمع

وتُطبَّق في الأمَّة حتى يتجلَّى اسم الله "**الحاكم**" في المجتمع، وحينئذ يتحقق الغرض من التشريع الإلهي، وهو حاكمية الله على إرادة الناس جميعاً، لأنَّ إرادة الإنسان - من بُعده التكويني - مظهر من مظاهر ذاته سبحانه، حيث أن من أسماء ذاته تعالى "**المريد**».

وهذه الإرادة من طبيعتها أنَّها ذات بُعدين وجانبين لأنَّ الإنسان بها يختار الخير أو الشر. فأراد الله سبحانه من الإنسان أن ينتخب باختياره الخير فقط، ويجتنب عن الشرّ، وذلك كي يترقى في مدارج الكمال ويصل إلى السعادة الأبدية، ومن هذا المنطلق شرَّع سبحانه الشريعة وبعث الرسل وبيَّن الأحكام. هنا تأتي مرحلة التطبيق حيث يلزم للإنسان أن يطبِّق الشريعة في المجتمع.

الإشراف على الأمة

ولكن هناك أمرٌ أهم من التطبيق وهو الاشراف والولاية على تطبيق الشريعة، وهذا يتطلب العصمة من الخطأ والانحراف، فهنا يأتي دور الإمام حيث أنه هو المشرف والحاكم على الأمة يقودها إلى الخير والصلاح، ويوصلها إلى الله.

فإذا دور الإمام دور حيوي وهو ركنٌ مهم كالشريعة نفسها بل لو نظرنا إلى الإمام من منظاره الخاص فإنه أهم من الشريعة نفسها، ذلك لأنه لاجدوى للشريعة من غير إمام.

ومن هنا نعرف عمق مابيّنه مولانا أمير المؤمنين عليَّ عليه السلام في كلمته حيث قال:

«ومكان القيِّم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمُّه، فإن انقطع النظام تفرَّق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً...»[٣٧].

فالإسلام بجميع جوانبه من عقائده وأحكامه وأخلاقه بمنزلة المسباح، كلَّ مافيه من العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وغيرها وكذلك المعاملات بل المعتقدات والأخلاقيات ليست هي إلا كالخرز لذلك المسباح.

ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله تمكَّن من تجهيز الخرز طوال ٢٣ سنة وتثقيبها إلا أنها لم تكمل بعد مادام لم يمرّ من خلالها الخيط، لأنَّ قوام المسباح بالخيط، والولاية تُمثِّل ذلك الخيط القوِّي الذي يجمع شمل جميع مافي الشريعة.

الحبل المتين

ومن هنا نشاهد أنَّ الولاية يطلق عليها حبل الله المتين والعروة الوثقى، كما في الحديث التالي:

«عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحبَّ أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين، فليوال علياً بعدي وليعاد عدوّه وليأتم بالهداة من ولده، فإنّهم خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي وسادة أمّتي

وقادة الأتقياء إلى الجنة، حزبُهم حزبي، وحزبي حزب الله عزَّ وجلَّ، وحزبُ أعدائهم حزب الشيطان»(٣٨).

وفي حديث آخر:

«عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: "فقد استمسك بالعروة الوثقى"، قال: مودَّتنا أهل البيت»(٣٩).

وجاء في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام:

«السلام عليك يا أمير المؤمنين أشهد أنك كلمة التقوى وباب الهدى والعروة الوثقى والحبل المتين والصراط المستقيم»(٤٠).

وبالولاية كمل الدين وصار ذا فائدة بعد أن كان ناقصاً لافائدة فيه، وتَّمت النعمة بعد أن كانت ناقصة غير تامَّة حيث كان يُخاف على زوالها بمجرَّد ارتحال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ﴾(٤١).

«عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فدعا بالغداء فأكلتُ معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أنظف منه ولا أطيب، فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد كيف رأيت طعامك؟ أو قال طعامنا؟ قلت: جعلتُ فداك ما رأيت أطيب منه ولا أنظف قطّ ولكنِّي ذكرت الآية التي في كتاب الله عزّ وجلّ "لتسألنَّ يومئذ عن النعيم" قال أبو جعفر عليه السلام: لا، إنَّما تسألون عمَّا أنتم عليه من الحق»(٤٢).

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نصل إلى عُمق الصحيحة التالية:

«**عن علي بن إبراهيم عن أبيه وعبدالله بن الصلت جميعاً عن حماد بن عيسى عن حريز بن عبدالله عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية. قال زرارة فقلت: وأيُّ شيء من ذلك أفضل فقال الولاية أفضل لأنها مفتاحُهن والوالي هو الدليل عليهن... ثمَّ قال: قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته...**»(٤٣).

والولاية ها هنا لايقصد منها الحبّ فحسب، بل هي أمر عملي تشبه الصلاة والصوم والزكاة في هذه الجهة وإن كانت أهم منها من جهات أخرى... فهي كلها عبادات عمليَّة وليست أموراً قلبيَّة بحتة. وأيضاً قوله عليه السلام **والوالي هو الدليل عليهن** حيث اشتقاق اسم الفاعل من الكلمة، دليلٌ على أن الولاية هاهنا إنَّما تعني الجانب العملي وهو الإطاعة والتبعيَّة المطلقة ومن هنا قال عليه السلام: «**ذروة الأمر... الطاعةُ للإمام**».

الوحي التسديدي

لاينحصر دور أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام في تبليغ الرسالة فهذا هو دور العلماء أيضاً حيث قال تعالى:

﴿**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحداً إلاّ الله**﴾.

فالعلماء ليس لهم دور إلاَّ الدفاع عن الشريعة ببيان النصوص القرآنية وماصدر عن المعصومين عليهم السلام وتوضيحها للناس.

ولكن أهل البيت عليهم السلام مافاً إلى أدائهم ذلك الدور أعني التبليغ والدفاع عن الشريعة، فهم كرسول الله صلى الله عليه وآله أصحاب الدعوى وشركاء رسول الله في أمر النبوة، ولهذا ورد في زيارة الحجة عليه السلام:

«**السلام عليك ياشريك القرآن**» والدليل على ذلك آية المباهلة حيث قال: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فيه منْ بَعْد مَا جَاءَكَ منْ الْعلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنسَاءَنَا وَنسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذبينَ**﴾(٤٤).

ومن الواضح أن الكاذب لايطلق على المتفرج، فهو ليس بكاذب ولاصادق... بل الكاذب والصادق من الصفات التي تطلق على من لديه ادعاءٌ ما، فهو -أعني المدَّعي- إما صادقٌ في ادعائه أو كاذب فقوله تعالى "**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**" دليلٌ على أن كلّ من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم المباهلة فهو كرسول الله صلى الله عليه وآله كان صاحب ادِّعاء، حيث ارتباطه بعالم الغيب وهذا مايطلق عليه "الوحي التسديدي" في قبال الوحي التشريعي.

الإشراك في الأمر

وأيضاً حديث المنزلة دليل آخر على هذا الأمر حيث كانت منزلة عليٍّ عليه السلام بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى، و هذا يعنى أنه

تعالى أشركَ علياً مع محمَّد ﷺ في أمرِ الرسالة التِّي طلبها موسى من الله لأخيه هارون "وأشركه في أمري" وإن كان هناك فرقٌ كبير بين هارون وبين علي عليه السلام، وذلك لأنَّ النبي ﷺ حيث اختتمت به النبوَّة فهو أفضل الأنبياء كما أنَّ وصيَّه هو أفضل الأوصياء دون موسى وهارون.

قال الإمام رضي الله عنه في بيان حقيقة الإنسان الكامل: "إن كانت عينه الثابتة تابعة للاسم الأعظم لاختتمت به دائرة النبوّة كما اختتمت بالنبي المعظم الخاتم ﷺ، ولم يوجد شخصٌ آخر من الأولين والآخرين ومن الأنبياء والمرسلين، تكون عينه الثابتة، تابعة للاسم الأعظم ولم يكن ظهور ذاته بجميع الشئون، ولهذا حصل له صلى الله عليه وآله وسلم ظهور بجميع الشئون، وحصلت الغاية من الظهور في الهداية، وتم الكشف الكلي واختتمت النبوة بوجوده المقدس".

ثم قال: "و إذا فرضنا أن شخصاً من أولياء الله تبعاً لذات النبي المقدّس وهدايته سبحانه، بلغ نفس المقام المقدَّس، لكان كشفه عين النبي، إذ لا يجوز التكرار في التشريع".

ومن هنا صار أمير المؤمنين عليه السلام نفس رسول الله ﷺ فهو إذاً أعلى من جميع الأنبياء عليهم السلام إلاّ خاتمهم وذلك لأنَّه خليفة للكشف التام ومن هنا قال ﷺ «إلاّ أنَّه لا نبيَّ بعدي» فهذه العبارة لا تُقلِّل من مرتبة أمير المؤمنين عليه السلام بل تُضاعفه وتجعل علياً أعظم من هارون، لأنَّ هناك أنبياءً بعد موسى عليه السلام فلم تكن نبوَّته تامَّة دون النبي ﷺ فهو خاتم النبيين وهو الذي وضع اللبنة الأخيرة وكملت به الدائرة، والذين يأتون من بعده، هم الهداة بالأمر فيهدون الناس إلى الشريعة الكاملة وهذا المقام -أعني

الهداية بالأمر - أفضل من مقام جميع الأنبياء.

يأس العدو من الدين

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نعرف أهمية هذا النصب في غدير خم، حيث أن العدوّ كان يتصور أنه بعد ارتحال رسول الله، ليس هناك من يتولى أمر الرسالة وكان يتمنّى استئصال الإسلام من أساسه حيث لا حيوية للدين -على زعمهم- بعد ارتحاله ﷺ ومن يأتي بعده ليس له دور رسالي بل هو مبلِّغ للوحي ليس إلاّ. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾(٥٤).

فواقعة الغدير قد قضت على جميع تلك المخطَّطات و أفشلت كافةَ المؤامرات. الجدير أن قضية الغدير استمرت بعد ارتحال عليٍّ عليه السلام حيث انتقلت الولاية إلى الحسن عليه السلام و الحسين عليه السلام و هكذا... إلى أن انتهت المسألة إلى عصر الغيبة الكبرى لولي العصر الحجة بن الحسن المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف فانتقلت الولاية إلى الفقيه الجامع للشرائط، لا للعالم فحسب، بل لمن كان صائناً لنفسه، حافظاً على دينه، مخالفاً لهواه، مطيعا لأمر مولاه... فاليوم ليس هو يوم ١٨ ذي حجة فحسب بل هو كل يوم يعيش فيه الإنسان تحت ظل الولاية. ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٤).

على كفؤ الزهراء

فكما أن الكوثر (وهي الزهراء) كانت سبباً لاستمرار النبوة و عند ولادة الزهراء قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(٧٤). فكذلك عند تتويج علي عليه السلام الخلافةَ يوم الغدير، يئس العدوّ "**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ**" فاستمرت الرسالة المحمدية. هذا و نختم الحديث بذكر أروع قصيدة ذكرت في شأن الغدير وهي قصيدة السيد الحميرى :

لأم عمرو باللوي مربع طامسة أعلامها بلقع
تروع عنها الطير وحشية والوحش من خيفته تفزع
رقش يخاف الموت من نقشها والسم في أنيابها منقع
برسم دار ما بها مونس إلاّ صلالٌ في الثرى وقع
لما وقفت العيس في رسمها والعين من عرفانه تدمع
ذكرت من قد كنت ألهو به فبت والقلب شج موجع
كأن بالنار لما شفني من حب أروى كبدي لدع
عجبت من قوم أتوا أحمدا بخطة ليس لها موضع
قالوا له: لو شئت أعلمتنا إلى من الغاية والمفزع
إذا توفيت وفارقتنا وفيهم في الملك من يطمع
فقال: لو أعلمتكم مفزعا كنتم عسيتم فيه أن تصنعوا
صنيع أهل العجل إذ فارقوا هارون فالترك له أوسع
وفي الذي قال بيان لمن كان إذا يعقل أو يسمع
ثم أتته بعد ذا عزمة من ربه ليس لها مدفع
بلغ وإلا لم تكن مبلغا والله منهم عاصم يمنع

فعندها قام النبي الـذي كان بما يأمر به يصدع
يخطب مأمورا وفي كـــــفه كف .علي ظاهر تلمع
رافعها أكرم بكف الـــــذي يرفع والكف الذي ترفع
يقول والأملاك من حــوله والله فيهم شاهد يسمع
من كنت مـــــولاه فهذا لـه مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
فاتهموه وحـــنت فيهم على خلاف الصادق الأضلع
وضل قوم غاضهم فعـــــله كأنما آنافهم تجـدع
حتى إذا واروه في لحـــــده وانصرفوا عن دفنه ضيعـــوا
ما قال بالأمـس وأوصى به واشتروا الضر بما ينفـع

المراجع :

١ - راجع برنامج موسوعة الحديث الشريف في الحاسب الآلي، ١٩٩١-١٩٩٥ عند البحث في: من كنت مولاه .

٢ - مسند أحمد بن حنبل الحديث ١٧٧٤٩ .

٣ - سنن ابن ماجة جلد: ١، ص ٤٥ .

٤ - مستدرك الحاكم جلد: ٣، ص١٠٩ .

٥ - مسند أحمد الحديث، رقم ٢١٨٦٧ .

٦ - العلل الواهية، ج١، ص٢٢٦، ح٣٥٦ .

٧ - الاعراف ١٧٢ .

٨ - المائدة ٦٧ .

٩ - المائدة ٦٧ .

١٠ - المائدة ٤١ .

١١ - المائدة ٤١ .

١٢ - تفسير القمي ج٢، ص ١٦٦ . بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٥ باختلاف .

١٣ - المائدة ٦٧ .

١٤ - آل عمران ١٦٤ .

١٥ - القصص٥ .

١٦ - الإرشاد ج١، ص١٧٦ . بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٨٦ .

١٧ - عيون أخبار الرضا، ج٢، ص١٢٠ . بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٢١ .

١٨ - النساء٨٤ .

١٩ - نهج البلاغة ج١٩، ص١١٦ . بحار الأنوار، ج١٩، ص١٩١ .

٢٠ - تفسير العياشي، ج ١، ص٣٢٨. بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٨٨.

٢١ - الأمالي للشيخ الصدوق، ص٤٥٩. بحار الأنوار، ج٣٦ ص١٣٩ باختلاف.

٢٢ - الزمر٦٥.

٢٣ - الكافي، ج ١، ص ٤٢٧، الرواية ٧٦.

٢٤ - محمد، ٩، ٢٦.

٢٥ - تفسير القمي، ج٢، ص ٣٠٢. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٨٥ باختلاف.

٢٦ - المائدة ٦٦.

٢٧ - تأويل الآيات ص١٦٠، بحار الأنوار، ج ٤٣،ص ١٥٨-١٥٩، و ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢٣٤، وجمع من علمائنا و علماء العامة.

٢٨ - الكافي ج١، ص ٤١٣، الرواية٦.

٢٩ - الجن١٦.

٣٠ - الكافي، ج ٨، ص ٥٨١٩.

٣١ - الكافي، ج٨، ص٥٨.

٣٢ - المائدة ٣.

٣٣ - المائدة ٣.

٣٤ - النحل١١٥.

٣٥ - النحل١١٥.

٣٦ - الأنعام ١٤٥.

٣٧ - نهج البلاغة لإبن أبي الحديد، ج٩، باب١٤٦، ص٩٥.

٣٨ - بحار الأنوار ج٢٣، ص١٤٤، روايه١٠٠، باب٧.

٣٩ - بحار الأنوار، ج٢٤، ص٨٤، روايه ٤ باب٣١.

٤٠ - الكافى ج ٤ ص٥٧٠، روايه ١.

٤١ - التكاثر٨.

٤٢ - الكافي، ج٦، ص٢٨٠، الرواية ٥.

٤٣ - وسائل الشيعة، ج١، باب٢٩، ص١١٩، الرواية٢٩٨، وأيضاً ج١ باب١ ص١٣، الرواية ٣.

٤٤ - آل عمران ٦١.

٤٥ - الطور٣٠ و ٣١.

٤٦ - المائدة ٣.

٤٧ - الكوثر ٣.

٧

أُدَّاءُ ٱللَّهِ

(٧)
أوِدَّاءُ ٱللَّـه

العشـــق

أعلم أنَّ المحبَّة والودّ والعشق والشوق والإرادة والميل والابتهاج ونحوها تشير إلى معنى واحد، ففي تعريف الحبِّ قالوا:

"**هوتعلُّقٌ خاص وانجذاب مخصوص بين المرء وكماله**".

وقالوا أيضاً:

"**ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أوجمالٍ أدركتْه فيه، بحيث يحمله إلى التقرُّب إليه**".

والودُّ هو:

"**محبة الشيء وتمنِّي كونِه**".

أي أنَّه يصير ذلك الشيء بعينه والتمني هو:

"**تشهِّي حصول ما تودُّه**".

وفي الدعاء:

"**يا منى المحبّين**".

والعشق هو:

"المحبة المفرطة".

قال العلاّمة المجلسي ﷺ:

"عَشِقَ من باب تعب، والاسم العشق وهوالإفراط في المحبَّة أي أحبَّه حباً مفرطاً من حيث كونه وسيلةً إلى القرب الذي هوالمطلوب الحقيقي"(١).

قال ابن عبّاد في محيط اللغة:

"عشِق: كلِف".

وقال في معنى كلِفَ:

"والكلَف، الإيلاع".

العشق في الشريعة

وردت هذه الكلمة في الشريعة في مواردَ معدودة نشير إلى بعضها:

الف: وقد ورد في الحديث:

«عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس عن عمروبن جميع، عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبَّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرَّغ لها، فهولا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم على يسر»(٢).

ب: عن كتاب الخرائج:

«قال الباقر عليه السلام: خرج عليٌّ عليه السلام يسير بالناس حتّى إذا كان كربلاء على ميلَين أوميل، تقدَّم بين أيديهم حتّى طاف بمكان يقال لها المقذفان، فقال: قُتل فيها مائتا نبيٍّ ومائتا سبط، كلُّهم شهداء، مناخُ ركاب[٣] ومصارعُ عشاق شهداء لا يسبقُهم من كان قبلَهم ولا يَلحقهم مَن بعدهم»[٤].

فكيف لم يستعمل الشرع هذه الكلمة كثيراً ؟

وجه ذلك ربّما لأجل تداول الكلمة على ألسنة أهل الدنيا التابعين للشيطان والهوى النفساني، فاشتهر عندهم في المحبَّة الشهوية الزائلة، فلواستعملته الشريعة، فربَّما كانت تتداعى في الذهن تلك الأمور المقرِّبة إلى الشيطان والمبعدة عن الله، وهذا نظير عدم ورود كلمة اللامس والشام والذائق في حق الله سبحانه وتعالى لئلا يتصوَّر البعض أنَّ اللهَ جسمٌ بخلاف السميع والبصير والمدرك.

الفرق بين العشق والعلم

العلم: هوانعكاس صور الأشياء في ذهن الإنسان، وهويتبع المعلوم تمامًا ويطابقه عيناً فيعكسه انعكاساً كاملاً إن كان حسَناً فحسنٌ وإن كان قبيحاً فقبيحٌ، وأمّا العشق فليس كذلك، بل له بعد داخليٌ نفساني أكثر وأعلى مستوىً من الجانب الخارجي الظاهري، فميزان العشق لا يتبع الحُسن، بل يتبع مستوى استعداد الإنسان ومستوى إمكانية العاشق وأرضيَّته النفسانيَّة واقتضائه الروحي. وفى الحقيقة يبحث العاشق وراءَ مبرِّرٍ، فبمجرد أن واجه موضوعاً ما يتناسب مع ما هوعليه من الروحيَّة، انسجم معه من غير أن ينكشف لديه رمزُ هذا الانسجام وسرُّه، ومن هنا

قيل: **إنّ العشق ليس له دليل، بل القوة الكامنة في الإنسان هي التّي تتجلّى وتخلق الحسنَ بمقدار إمكانياتها واستعدادها الذاتي.**

يقول العلامّة الخواجة نصير الدين الطوسي في شرح الإشارات لابن سينا:

«والحبُّ النفساني هوالذي يكون مبدؤه مشاكلة نفس العاشق لنفس المعشوق في الجوهر[٥] ويكون أكثرُ إعجابه بشمائل المعشوق لأنَّها آثارٌ صادرة عن نفسه وهويجعل النفس ليِّنة شيِّقة، ذاتَ وجدٍ ورقَّة منقطعة عن الشواغل الدنيويَّة»[٦].

ولأجل هذه المشاكلة بين المحبوب والمحبّ حيث تنتقل صفات المحبوب إلى المحب، نشاهد اهتمام الإسلام في انتخاب الصديق، حيث أن الحبَّ يَخلق الجمال ويؤدى إلى **الغفلة**، وحيثما أشرق الحبّ سوف نُشاهد العيوب محاسناً والأشواك ورداً، فيُعمي ويُصمّ، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ:

«حبُّك للشيء يعمي ويصم»[٧].

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن كل إنسان يرى كمال نفسه ورفعةَ عقلَه وجمالَ وَلَده، فالعشق رغم أنه يدقِّق فهم الإنسان ويثير أحاسيسه، يؤطِّر نظرَه، فيجعله مُنصبّاً في نقطة واحدة فقط، فيَستر عيوب المعشوق بل يُظهر العيوبَ محاسناً والظلمات نوراً.

ونفس الكلام ياتي في ضدِّ العشق والحب، وهوالبغض فهوأيضاً يُعمي ويُصم.

العشق للكمال المطلق فطري

قال الإمام ﷺ:

"الفطرة التي فَطر اللهُ الناسَ عليها هي تلك الحالةُ والهيئةُ التي هي من لوازم وجود الناس ومن أسس بنائهم، وهي لطف من الله سبحانه للإنسان خاصَّة في قبال سائر الموجودات. ينبغي أن نعلمَ أنَّ كلَّ أمرٍ يتعلق بالفطرة لابدّ وأن لا يقع فيه أيُّ شَكل من الخلاف والاختلاف، بلْ من اللازم أن يتَّفق الناس كلُّهم مع الحكم الفطري، العالم منهم والجاهل، المدنيُّ والبَدَويّ وحتّى الإنسان الذي يعيش مع الوحوش في الغابات والذي لم يشمَّ رائحة الحياة الاجتماعية. ومن ناحية أخرى إن اختلاف البلدان والأمكنة والأذواق والأهوية والآراء والعادات، رغم تأثيرها على كلِّ شيء حتّى على الأحكام العقلية القطعية، يستحيل أن تؤثِّر وتغيِّر أحكام الفطرة قيد أنملة، وأيضا الاختلاف في الأفهام من ضعف الإدراك وقوَّته لا يؤثِّر في أحكام الفطرة، وذلك حيث تقول الآية:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٨).

ثمَّ: إنّ من الأمور الفطرية التي جُبِل عليها جميعُ البشر من غير استثناء هو: (العشق للكمال) فمع التجوّل في الأدوار التي مرَّت بها البشرية، واستنطاق كلِّ فرد من أفرادهم وكلِّ طائفة من طوائفهم، نجد أن هذا العشق والحبّ قد جُبل في طينته ونجد أن قلبَه متوجِّه نحوالكمال، بل جميع حركاته ومساعيه ليست هي إلاّ لأجل هذا الحب الكامن في

ضميره، فهويريد الوصول إلى الكمال، ويطلب مشاهدة معشوقه ومحبوبه ؟ وكلٌّ يجد معشوقه في شيء فيطلب ذلك الشيء ويتفانى في سبيله، فأهلُ الدنيا يحسبون الكمال في الثروة فيسعون للوصول إليها، وأهل العلم في العلم، وأهل الآخرة في العبادة وهكذا، فالناس جميعهم يسعَون نحوالكمال، فإذا تصوَّرُوه في موجود أوموهوم تعلَّقُوا به وعشقوه، ولكن على الرغم من ذلك، فليس عشقُهم لهذا الذي ظنوه بأنه معشوقهم، وهذا الذي توهموه وتخيَّلوه ليس هوكعبة آمالهم، إذ لورجع الإنسان إلى فطرته لوجد أن قلبه في الوقت الذي يُظهر العشق لشيء ما، فإنَّه يتحوَّل عن هذا المعشوق إلى غيره إذا وجد الثاني أكمل من الأول وهكذا، بل إن نيران عشقه لتزداد اشتعالاً، فالإنسان يحبُّ الجمال فيصل إليه ولا يقتنع به بل يطلب أجمل منه وهكذا، ويعشق القدرة فيصل إليها ثم لا يستقر بل يتزايد حبُّه إليها ولا تخمد نار اشتياقه أصلاً... بل تزداد لهيباً ... وهذه الحالة تشمل جميع البشرية من غير استثناء.

ثمَّ إنَّ الإنسان إنَّما يعشقُ الكمال الذي لاعيب فيه ولا كمال بعده، والعلم الذي لاجهل فيه، والقدرة التي لا عجز فيها، والحياة التي لاموت فيها أي الكمال المطلق"[٩].

فعندما ينظر الإنسان إلى الوردة الجميلة مثلاً ويتلذّذ، فهوفي الواقع لايتلذّذ من الوردة ولا يُريدها كَوردة، بل النفس تتلذّذ بالجمال وتحبُّ الجمال، فلوفقدت الوردة جمالَها فلا تحبُّها النفس أصلاً، وهكذا بالنسبة إلى كلِّ هالك وآفل. فالمطلوب إذاً هوالجمال والكمال غير المحدود وغير المؤطَّر، وهوالله سبحانه. من هنا نشاهد شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل -على

نبيِّنا وآله وعليه السلام - ينفي كلَّ آفل حتَّى يصل إلى الربّ:

﴿وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[١٠].

الكمال المطلق هو الله

ثمَّ استنتج الإمام ﷺ وقال:

"فهل هناك كمال مطلقٌ سوى الله سبحانه وتعالى ؟وهل هناك جمال مطلق، وعلمٌ مطلق، وقدرة مطلقة، سواه تعالى ؟ فإذاً الكلّ يطلبه سبحانه، وهوأمل الآملين: "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ"[١١]، وحيث إن العشق في الإنسان أمرٌ فعليٌ حقيقيٌّ وليس بموهوم أومتخيل، إذ أنَّ كلَّ موهوم هوناقص، والفطرة إنما تتوجَّه إلى الكامل، فإذاً هناك معشوقٌ فعليٌّ حقيقي، وهوالكمال المطلق وهوالله سبحانه وهوموجود بالفعل: "أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ"[١٢] وهوواحد لا شريك له وأحدٌ غير مركَّب[١٣] لأنَّ كلَّ كثير ومركب ناقص، لأنَّ الكثرة لا تكون دون محدودية والمحدودية نقص[١٤]، وكلٌّ ناقص مرغوب عنه من جانب الفطـــرة".

الشيطان والتزيين

من حيَل الشيطان، تزيين القبيح كي يشتاق إليه الإنسان، لأنَّ الإنسان لايحبُّ إلاّ الجميل، فهذا إبليس يقول وبكلِّ جدٍ وعزم:

﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١٥).

وقال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(١٦).

والذي قد أغواه الشيطان، سوف يصل إلى مستوى يقول عنه تعالى:

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾(١٧).

ليس ذلك إلاّ لأنَّه يرى القبيح جميلا فيفرح به.

وأيضاً من حيَل الشيطان **إظهار الفاني**(١٨) **وكأنَّه باقٍ** لا فناء يعتريه ولانقصٌ يواجهه، وذلك لأجل أن يرغب فيه الإنسان المحبّ للمطلق، ومن هنا استطاع أن يغوي آدم وزوجته:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَيَبْلَى﴾(١٩).

ولأنَّ آدم كان يعشق الكمال المطلق، فبطبيعته انجذب إلى الشجرة التي كان يظنُّها شجرةَ الخلد والملك الذي لا يبلى.

وحيث زيَّن الشيطان لأوليائه ما أوتي قارون من أموال، فنرى جماعة من قومه تمنَّوا الوصول إلى مستوى قارون، قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُوحَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٢٠).

ومن هذا المنطلق نشاهد أنَّ الإنسان يسعى وراء كل ما يراه مشتملاً على الكمال فيعشقه.

وجميع مصاديق العشق المجازي(٢١) ترجع إلى هذا الأمر، حيث يرى العاشق محبوبه الحقيقي- أعني المطلق - في ذلك الموجود الخارجي فيحبُه ويرغب إليه.

يقول محيي الدين ابن العربي: "**ما أحبّ أحدٌ غير خالقه، ولكنَّه تعالى احتجب تحت اسم سعاد وهند وزينب**".

دور الأنبياء والأولياء

ومن هنا يمكننا أن نعرف الدور الأساسي للأنبياء والأولياء، فهم لم يُبعَثوا لإزالة ذلك العشق الفطري للكمال، بل بُعثوا لأجل تصحيح مسيرة العشق وهدايته وسوقه إلى الكمال المطلق الحقيقي الفعلي لا الكمال الموهوم.

وبعبارة أخرى: مهمَّةُ الأنبياء والأولياء هي إرجاع العباد إلى الله سبحانه وتعالى، الذي هوأمنيتهم ومأمولهم الواقعي، فلا يطلب العبد من ربِّه شيئاً سوى نفسَه، فهويريد كلّ البهاء[٢٢] وكلّ الجمال وكلّ الرحمة وكلّ النور بل كلّ الأسماء، فهوإذاً يطلب الله سبحانه، لأجل الرجوع إليه:

﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[٢٣].

ولقياه والسرور والإستيناس به: «**يا سرور العارفين يا منى المحبين يا أنيس المريدين يا حبيب التوابين يا رازق المقلين يا رجاء المذنبين يا قرة عين[٢٤] العابدين**»[٢٥].

«**يا سرور الأرواح ويا منتهى غاية الأفراح**»[٢٦].

ولا دواء للناس إلاّ اسمه، ولا شفاء للقلوب إلاّ ذكره:

«**يا من اسمه دواء وذكره شفاء**»[٢٧].

هل الدين إلا الحب

فاتَّضح مما ذكرنا عليك أنَّ الدين ليس هوالشريعة فحسب، أعني القانون الصادر من الشرع المقدس المشتمل على الأحكام المختلفة من الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة، فليس الدين هوالصلاة! والزكاة! وسائر العبادات وليس هوالمعاملة كما تصوَّر البعض! بل كلُّ تلك الأمور هي ظاهر الدين وأمّا باطنه وروحه، هوالعشق بالله تعالى والتقرُّب إليه.

وقد أكَّدت الأحاديث الكثيرة على ذلك، نذكر بعضها، ففي الكافي: «**عن علي عن أبيه عن حماد عن حريز عن فضيل بن يسار قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحبّ والبغض أَمِنْ الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض ! ثمَّ تلا هذه الآية: "حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنَه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون"**»[٢٨].

وفي حديث آخر عن الحسين بن سيف قال:

«**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يمحّض رجلٌ الإيمانَ بالله حتى يكون الله أحبَّ إليه من نفسه وأبيه وأمِّه وولده وأهله وماله ومن الناس كلّهم**»[٢٩].

ومن هنا تعرف السر في أهميَّة النيَّة قربةً إلى الله في العبادات وحتى في المعاملات، وأيضاً تعرف الدور التخريبي الفضيع للرياء والعُجب في العبادات. وقد وردت أحاديث كثيرة في أثر داء الرياء ففي الكافي:

«**عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن عثمان بن عيسى عن علي بن سالم قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عز وجلَّ: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عملٍ عمِله لم أقبلْه إلاّ ما كان لي خالصا**»[٣٠].

تهذيب النفس

إن القلب رغم صغر حجمه المادِّي، لكنَّه هوالمنشأ لجميع الخيرات أوالشرور، ومن الواضح أنَّنا لا نقصد من القلب حينئذ العضوالجسماني بل ننظر إلـى الجانب الآخر منه وهوالمرتبط بروح الإنسان، ونظراً إلى هذا الجانب، قد وصفه القرآن الكريم بصفات حسنة وسيِّئة، فأهم الصفات الحسنة للقلب هي:

«الربط[٣١] والاطمئنان والوجل[٣٢] والإخبات[٣٣] والهداية واللين والسلامة والتآلف[٣٤] والرغبة والطهارة والإيمان والرأفة والرحمة والخشوع والتقوى والحميَّة[٣٥] والسكينة[٣٦] والعفّة»

كما أنَّ أهم الصفات السيِّئة له:

«المرض والرين[٣٧] والطبع[٣٨] والغل[٣٩] والقساوة والكفر والفسـوق والعصيان والكنان[٤٠] والنفاق والقفل والاشمئزاز[٤١] والريب[٤٢] والعمى واللهو والغيظ[٤٣] والختم والغلظة والحسرة والزيغ[٤٤] والإثم»

ومن الطبيعي أن نتساءل ونقول:

ما هـي الوسيلـة التِّي يمكننـا من خلالها أن نُصلح أنفسنا ونُهذِّب قلوبنا مـن الأرجـاس والأنجـاس وأن نبعدهـا ونطهِّرهـا مـن الأقـذار لتتلبَّـس بالحسنات والخيرات؟

هناك طرق مختلفة لذلك أهمُّها:

سبيل العقل

وهي الطريقة السقراطية، يقول أصحاب هذا الأسلوب:

إنَّ الطريق الوحيد لتهذيب النفس هوالاعتماد على العقل والتدبير، فينبغي للإنسان أن يتعرف على فوائد التزكية ويؤمن بها، وأيضاً يعرف مَضرّات إهمالها، ثم وبالاستعانة بالعقل يعثر على الصفات الذميمة، فيبدأ في قلع جذورها واحدة تلوالأخرى إلى أن يتخلَّص منها تماماً.

ومَثَله كمثل الزارع الذي يعثر على النبت غير الصالح والأعشاب المضرَّة فيقلعها ويتخلَّص منها، أوكمن يَفصل ذرّات التراب من حبّات الحنطة.

فينبغي للإنسان أن يتأمَّل في نفسه ويبحث فيها لغرض العثور على المساوئ والمفاسد الخُلقية، ثم يبدأ بقمعها وإزالتها واحدةً واحدةً حتَّى يتخلَّص منها جميعاً.

تلاحظ أنَّ الفيلسوف يريد أن يحقق إصلاحَ النفس من خلال المعادلات العقلية ومعرفة الخير والشرّ فيقول مثلاً:

إنَّ العفة والقناعة تؤديان إلى عزة الإنسان وبروز شخصيته لدى الناس، والطمع يجرُّه إلى الذلِّ والهوان، أو أن العلم يورث القدرة في الإنسان، وهومصباح يميِّز به الإنسان الطريق السويِّ من المعوج، أوأن الكبر من الأمراض الروحيَّة التِّي تنتج منه عواقب سيِّئة للفرد والمجتمع، والرياء يورث الشرك، وهكذا بالنسبة إلى سائر الصفات الحسنة والسيِّئة، ثمَّ يبدأ بقمع الشرور وتثبيت الحسنات، فَمثَل هذا الإنسان مَثَلُ من يريد

أن يفصلَ بيديه بُرادةِ الحديد المختلطة بالتراب، فكم يعاني من تعبٍ ومشقَّة في نجاح هذا الأمر، وبالأخير لن يتمكَّن من ذلك، بل لا مُحالةَ سوف يتبقى شيء من البرادة في التراب قطعاً.

فإذاً هذا الأسلوب يتطلَّب الصبر الجميل والاستقامة المتواصلة، ومن الصعب أن يُوَّفق الإنسان للوصول لتلك الصفات بالمستوى المطلوب، بحيث يمكنه تصفية نفسه من العيوب تمامًا، فهوإذاً أسلوبٌ جيِّدٌ ولكن الكلام كلّ الكلام في مستوى جودته عندما نقايسه بالأسلوب الثاني.

سبيل العشق والحب

وهوسبيل العرفاء، وهذا الأسلوب هوالأسرعُ تأثيراً والأقلُّ خَطراً وهوسبيل الحبّ والعشق والذوبان في المعشوق من أجل تطهير النفس من العيوب.

من نحبّ ؟

قد اتَّضح لك أنَّ المحبوب بالأصالة هوالله سبحانه لا غير، فكلُّ ما يُطلَب من دون الله مهما كان مستواه فهوموهوم والتوجه إليه يورث الشرك به تعالى، وذلك لأنَّ القلب هومحلّ الحبّ، ولا يمتلك الإنسان إلاّ قلباً واحداً، قال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(٤٥).

وقال الصادق عليه السلام:

«القلبُ حرم الله فلا تُسكن حرمَ الله غير الله»(٤٦).

ولكن هل بإمكاننا أن نتعلَّق بالله سبحانه ونرتبط به بصورةٍ مباشرة؟ هذا ما سنجيب عنه فنقول:

مشيئة الله سبحانه

إنَّ الله سبحانه أراد فخلق، والمخلوقات ليست هي إلاّ فيوضات الله سبحانه وتعالى(٤٧)، فعندما أفاض الله الوجود على الأشياء، صار كلٌّ واحد منها مظهراً من إفاضاته وتجلِّياً من تجلِّياته، فبعضها مظهر الجمال وبعضها مظهر الكرم، وبعضها مظهر اللطف وهكذا.

ولكن المهمّ أنَّ الله شاء فخلق، فأوَّل مظهر من مظاهر الله هوالمشيئة الإلهيَّة(٤٨) التِّي يُطلق عليها الأمر حيث يقول:

﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٤٩).

فبالمشيئة خُلقت الأشياء ولأجلها سُمِّيَت الأشياءُ أشياءً، فالرابط الأوَّل بين النور المطلق وسائر الأنوار هوالنور الأوَّل، والواسطة بين الله وسائر العقول هوالعقل الأوَّل وهونور محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. ومن خلالهم وجدت الأشياء، فهم أولوا الأمر وبهم فتح الله، فجميع المخلوقات مستهلكة في المشيئة التي هي مقام التدلي:

﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾(٥٠).

قال الإمام ﷺ:

"وهوالمشيئة المطلقة المعبَّر عنها بالفيض المقدَّس والرحمة الواسعة والاسم الأعظم والولاية المطلقة المحمدية أوالمقام العلوي وهواللواء الذي آدمﷺ ومن دونه تحته والمشار إليه بقوله (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين أو بين الجسد والروح) أي لا روح ولا جسد ليس شيء وهوالعروة الوثقى والحبل الممدود بين سماء الإلهية وأراضي الخلقية وفي دعاء الندبة قولهﷺ: أين باب الله الذي منه يؤتى ؟ أين وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء؟ أين السبب المتصل بين الأرض والسماء؟ "(٥١).

وعلى هذا الأساس ينقسم المحبُّون لله إلى طائفتين هما:

١ - المحبُّون غير المحبوبين.

فهؤلاء لا تخلومحبتهم عن شائبة ألَمِ فقدٍ وحزنِ فراقٍ.

٢ - المحبُّون المحبوبون.

وهم الذين وصلوا إلى محبوبهم فصاروا أحبّاء الله، وهم محمَّد وآل محمَّد والمخلَصون من الأنبياء والأولياء، ولذلك ورد في زيارة الرسول صلى الله عليه وآله:

«السلام عليك يا حبيب الله»(٥٢).

ومن هنا يختلف سلوك الطائفة الأولى عن الطائفة الثانية، فالمحبوبون قد وصلوا إليه تعالى من غير معلِّمٍ ومُرشدٍ، بل قد شملتهم العناية الأزلية(٥٣) والهداية الإلهيَّة. يقول سبحانه:

﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾(٥٤).

وفي قرب الإسناد:

«عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى والسابقون السابقون أولئك المقربون قال: نحن السابقون ونحن الآخرون»(٥٥).

وإليهم أشار بقوله تعالى:

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾(٥٦).

قال الحكيم السبزواري وفيهم قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ لله تعالى شرابا لأوليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا خلصوا وإذا خلصوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتَّصلوا وإذا اتَّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم، وهوإشارة إلى شراب المحبَّة بكاس الشوق والإرادة في عالم الأرواح قبل الأجساد حتى لا يبقى بينهم وبينه مغايرة ولا من إنِّيّاتهم(٥٧) بقيَّة وتكون المحبة والمحبّ والمحبوب شيئاً واحداً»

وأمّا المحبُّون فينبغي لهم أن يسلكوا الطريق بالترويض والمجاهدة وبالزهد والتقوى وهم أصحاب اليمين.

العشق بمن يحبه الله هو العشق بالله

ينبغي أن يتعرَّفَ الإنسانُ على وليِّ الله الأعظم ويُربِطُ نفسه به ويعقد قلبه بولائه، ومن ثمَّ سوف يتمكَّن من تصفيةِ نفسه من جملة العيوب

والشوائب من دون عناءٍ كبير.

والسرُّ في ذلك:

أنَّ التصفية الروحيَّة ليست إلاّ ارتباط الإنسان بالله والتخلُّق بأخلاقه تعالى حيث أُمرنا أن نتخلَّق بأخلاقه:

«قال ﷺ: **تخلَّقوا بأخلاقِ الله**»(٥٨).

ومن هنا قالوا إنَّ الحكمة المتعالية (الفلسفة) عبارةٌ عن:

"**التشبُّهِ بالإله بقدر الطاقةِ البشريَّة**"

ويعنُون بذلك تقليل التعلُّقات واكتساب الخيرات والحسنات، فاكتساب الطهارة والكرم والجمال والعلم وغيرها من الصفات الإلهيَّة يعني الارتباط بالطهارة المطلقة والكرم والجمال والعلم المطلق، وكلٌّ هذه بالمستوى الرفيع متوفِّرة في مظهر المشيئة الإلهيَّة وهم محمَّد وآل محمَّد ﷺ، وهم الذين يحبُّهم الله ويحبُّونه حيث اتصافهم بصفات محبوب الله فإنّ الله:

﴿يحبُّ المقسطين﴾ ﴿يحبُّ المتقين﴾ ﴿يحبُّ المتوكلين﴾ ﴿يحبُّ المحسنين﴾ ﴿يحبُّ التوّابين ويحبُّ المتطهِّرين﴾ ﴿يحبُّ الصابرين﴾ ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾(٥٩).

فهم مظهر هذه الصفات ومن يريد أن يكتسب حبَّ الله باتِّصافه بها، ينبغي له أن يُربط نفسه بهم ﷺ، فالله لا يحب المتطهرين إلاّ لذوبانهم في الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً.

ومثَل هذا الأسلوب كمثل من يستعين بمغناطيسٍ قويٍ لجذب برادة الحديد المختلطة بالتراب، فبمجردِ امراره على التراب سوف تجتمع جميعُ ذرات الحديد حول المغناطيس من غير أن تتبقى حتَّى ذرَّة واحدة منها في التراب فكم فرقاً بينه وبين الذي يخرج البرادة حبَّة حبَّة كما مرَّ.

إذاً فقوةُ المحبَّة والإرادة بالكُمَّلين -وهم محمَّد وآل محمَّد عليهم السلام- هي المغناطيس الذي يجذب الصفات الرديئة، ويعزلها عن الصفات الحسنة فيهذِّب الأخلاق ويُصفِّيه من الشوائب الدخيلة ويبعد الروح عن كلِّ ما سوى الله تعالى.

وعلى ضوئه يمكن الوصول إلى حقيقة ما في كثير من الكلمات المأثورة عنهم عليهم السلام كما في زيارة الجامعة الكبيرة:

«وجعل صلاتنا عليكم وما خصَّنا به من ولايتكم، طيباً لخلقنا، وطهارةً لأنفسنا، وتزكيةً لنا، وكفارةً لذنوبنا»(٦٠).

وفي زيارة أخرى: **«وجعل ما خصَّنا به من معرفتكم تطهيراً لذنوبنا وتزكيةً لأنفسنا»**(٦١).

وقد ورد في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام: **«في قوله: وينزِّلُ من السماء ماءً ليطهِّركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبِّت به الأقدام قال: وأمّا قوله: ليطهِّركم به فذلك عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام يطهِّر الله به قلبَ من والاه وأمّا قوله: "ويذهب عنكم رجز الشيطان" فإنه يعني من والى عليّ بن أبي طالب، أذهب الله عنه الرجس وقوّاه عليه»**(٦٢).

ولا يخفى أنَّ ما ذكره عليه السلام ليس بعيداً عن ظاهر الآية المباركة، بل كلُّ من يتأمَّل فيها بعيداً عن العصبيَّة سوف يذعن بذلك، لأنَّه لا توجد مناسبة كبيرة بين الماء النازل من السماء (لوأريد منه الماء المتعارف) وبين ذهاب رجز الشيطان وربط القلوب وتثبيت الأقدام التِّي هي أمور معنويَّة.

فما هورجز الشيطان؟ هل المقصود منه الأوساخ أوالميكروبات! ولوفُسِّر الرجس بذلك فما هوالمراد من ربط القلوب وتثبيت الأقدام ؟ وهل للماء هذان المفعولان؟

فلا محالة ينبغي أن نلتمس معنىً آخر للآية وهوما ذكره الإمام الباقر عليه السلام الذي يمثِّل الثقل الكبير من الثقلين وفي الحديث:

«عن على بن محمد عن سهل بن زياد عن موسى بن القاسم بن معاوية البجلي عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين قال: إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد»(٦٣).

فالالتجاء إلى من خصَّهم الله بالطهارة يؤدِّي إلى تطهير النفوس وتزكية القلوب من الأنجاس والأرجاس، ومحبَّتهم سوف تُسلِّطُ الضَوءَ على جميع أركانِ وجود المحبِّ وتَصبغُه صبغةَ المحبوب.

فإذاً ينبغي لكل من هوبصدد إصلاح نفسه وتهذيبها أن يودَّ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً، وهذا الوُّد مدرسةٌ متكاملةٌ، وهومنشأ جميع الخيرات والصفات الحسنة كالصبر والإيثار والإخلاص والتواضع والسكينة والشجاعة وغيرها بل حتَّى العبادات العمليَّة.

ومن هذا المنطلق ورد في الأحاديث أنَّ الدين ليس هوإلاّ الحبّ، فكلٌّ متهاون في عمل الخير بعد أن ينطلق من منطلق الحب والعشق سوف يكتسب نشاطاً لا مثيل لـه، وسوف يكتسب عزماً يجعله قوياً ومُصراً على الاستباق في الخيرات.

والتأريخ الإسلامي خير شاهد على ذلك، نذكر نموذجاً من تلك المواقف العظيمة التي صدرت من أحد العشّاق وهوأبوذرٍ الغفاري:

«كان أبوذر تخلف عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام وذلك إن جَمَلَه كان أعجف(٦٤) فلحق بعد ثلاثة أيام به ووقف عليه جمله في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخصٍ مقبلٍ، فقال رسول الله ﷺ: كأنَّ أبا ذرٍ فقالوا: هوأبوذر. فقال رسول الله ﷺ: أدركوه بالماء فإنَّه عطشان فأدركوه بالماء ووافى أبوذرّ رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر معك ماء وعطشت، فقال: نعم يا رسول الله، بأبي أنت وأمِّي انتهيت إلى صخرةٍ وعليها ماءُ السماء فذقتُه فإذا هوعذبٌ باردٌ، فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ يا أبا ذر رحمك الله تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق يتولَّون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك»(٦٥).

فاتبعوني يحببكم الله

إنَّ التمسك بأهل البيت عليهم السلام هوتحقيق مصداقيَّة الحبّ في الخارج، ومن أبرز مميِّزات المحبِّ هوتنسيق حركاته وسكناته مع محبوبه، وهذا يعني تبعيَّته في

جميع الامور وجعله أسوة في اتخاذ المواقف إيجابياً وسلبياً. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٦).

فلا نتيجة عظيمة في حبِّ الإنسان لله، بل لا بدّ أن يصل الحب إلى مستوى يكون الإنسان محبوباً لله أيضاً.

وقد أكَّدت أحاديثنا على أنَّ التمسك بهم عليهم السلام لا يتحقق إلاّ من خلال العمل المستمر والسعي المتواصل:

«عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة: وأنا حبلُ الله المتين وأنا عروة(٦٧) **الله الوثقى»**(٦٨).

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ...﴾(٦٩).

فالآية الكريمة تشير إلى ذلك حيث أنَّ الحبل له طرفان: طرَفٌ إلهيّ وطَرفٌ خَلقيّ:

«عن المفضل قال سمعت مولاي الصادق عليه السلام يقول: كان فيما ناجى الله عزَّ وجلّ به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: يا ابن عمران كذب من زعم انه يحبُّني فإذا جنَّه الليل، نام عنِّي! أليس كلّ محبٍّ يحبّ خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنَّهم الليل حولت أبصارهم من قلوبهم ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة

ويكلموني عن الحضور. يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظُلم الليل وادعني فإنَّك تجدني قريباً مجيباً»(٧٠).

ومن أهمِّ صفات المؤمن الذي يحبُّ الله ويحبُّه الله، ما ورد في الآية الآتية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٧١).

فالتواضع للمؤمنين والتكبر على الكافرين والجهاد في سبيل الله هي أبرز سماتهم.

ثمَّ: من الجدير بالذكر، ما ورد في تعقيب صلاة الصُّبح نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«أصبحت اللهم معتصما بذمامك(٧٢) **المنيع... بجدار حصين الإخلاص في الاعتراف بحقهم والتمسك بحبلهم جميعاً موقناً أنّ الحق لهم ومعهم وفيهم وبهم أُوالي من والوا وأجانب من جانبوا فأعذني اللهم بهم من شرِّ كلّ ما اتقيه»**(٧٣).

فالاعتصام بذمام الله لا يتحقق إلاّ بالتمسك بحبلهم جميعاً.

المراجع والتوضيحات:

١ - بحار الأنوار ج٧٠، ص ٣٥٢ .

٢ - الكافي ج ٢ ص ٣٨ الرواية ٣ .

٣ - أي محط الرحال يقال ناخ البعير في هذا الموضع أي لزمه .

٤ - الخرائج، ص ١٨٣ . بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٩٥، باختلاف .

٥ - أي الحقيقة واللب لا الظاهر والقشر .

٦ - شرح الإشارات .

٧ - نهج البلاغة ج ١٦ ص ١١٧ وبحار الأنوار ج ٧٧ ص١٦٦ .

٨ - الروم٢٠ .

٩ - الأربعون حديثاً .

١٠ - الأنعام ٧٩ .

١١ - الأنعام ٧٥-٧٩ .

١٢ - إبراهيم١٠ .

١٣ - ويعني بالتركيب أعم من التركيب في الخارج أوفي الذهن والتصوُّر، لأنَّ المركب مهما كان يتكوَّن من أجزاء وكلٌّ جزء يحتاج إلى الآخر كما أنَّ الكل يحتاج إلى أجزائه، والله هوالغني المطلق

١٤ - لأنَّ المحدود يلازم المكان والزمان الخاص فإن كان هنا فهوليس هناك وإن كان في هذا الزمان فهوليس في ذاك الزمان فهوإذاً ليس بمطلق

١٥ - الحجر٣٩ .

١٦ - آل عمران١٤ .

١٧ - الرعد٢٦ .

١٨ - ونعني بالفاني الزائل لا الفناء بمصطلحه العرفاني الذي يعني المحووالذوبان وإن كان بهذا المعنى أيضاً صحيح.

١٩ - طه١٢٠.

٢٠ - القصص٧٩.

٢١ - وهوالعشق الذي أطلق عليه اللفظ مجازاً من باب الإسناد إلى غير ما هو له كما تقول جرى الميزاب والماء هوالجاري أومشى زيدٌ والسفينة التي هو راكبها قد مشت.

٢٢ - البهاء هوالحسن والمقصود من كل البهاء أي البهاء الذي لاحدَّ له وهو الله تعالى.

٢٣ - العلق٨.

٢٤ - وقرة العين رؤية ما تقر به العين يقال اقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك حتى لا تطمح بالنظر إلى ما فوقه.

٢٥ - مصباح الكفعمي، ص ٢٥٣. بحار الأنوار، ج ٩٤، ص٣٨٩.

٢٦ - بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١١.

٢٧ - دعاء كميل.

٢٨ - المحاسن، ص٢٦٢. بحار الأنوار، ج ٦٩ ص٢٤١.

٢٩ - فلاح السائل، ص١٠٠. بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٤.

٣٠ - المحاسن ص٢٥٢. بحار الأنوار، ج٧٢ ص٢٨٨.

٣١ - الربط على القلوب يراد به تشجيعها وتقويتها ووثوقها وتسديدها.

٣٢ - الوجل استشعار الخوف.

٣٣ - الإخبات الخشوع والخضوع للرب تعالى.

٣٤ - التآلف ضد التفرق والمعاداة.

٣٥ - الحميه الغيرة والأنفة.

٣٦ - السكينة الهون والوقار.

٣٧ - قال الجوهري الرين الطبع والدنس يقال ران على قلبه ذنبه يرين رينا وريونا.

٣٨ - الختم الطبع.

٣٩ - الغلّ الحقد والشحناء.

٤٠ - كنان هوالغطاء الذي يكن فيه الشيء أى يستر وجمعه أكنة.

٤١ - الاشمئزاز الإنقباض والنفرة والكراهة.

٤٢ - الريب أقبح الشك.

٤٣ - الغيظ شدّة الغضب.

٤٤ - الزيغ الميل عن استقامة.

٤٥ - الأحزاب٤.

٤٦ - جامع الأخبار، ص١٨٥. بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٥.

٤٧ - الفيض غير منفصل عن المُفيض وغير متجافٍ عنه بل هومظهر من مظاهره ونورٌ من أنواره وتجلٍّ من تجلياته فهوفقير إليه كما أنَّ المُفيض هوالقيّوم عليه في حدوثه وبقائه كالشمس ونورها وكالبحر وأمواجه.

٤٨ - راجع البحث الأوَّل تحت عنوان محال مشيئة الله.

٤٩ - الأعراف٥٤.

٥٠ - النجم٨.

٥١ - شرح دعاء السحر.

٥٢ - تفسير القمي، ج ٢ ص٣٢٤. بحار الأنوارو ج٨٦ ص٢٤.

٥٣ - وهي مستوى أعلى من الهداية بمعنى إرائة السبيل الشاملة لجميع الناس، وهذه العناية الإلهية المسبقة لا تنافي إختيار الإنسان لأنَّه باختياره سوف ينتخب الطريق ولكن الله سبحانه لعلمه بذلك يجعله تحت عنايته الخاصة

٥٤ - الأنبياء١٠١.

٥٥ - المناقب، ج٤، ص٢٨٤. بحار الأنوار، ج ٢٤، ص٤.

٥٦ - الإنسان٢١.

٥٧ - أي الأنـــا التي تحكي عن التعلُّق والارتباط بعالم المُلك والدنيا والتورُّط في سجن الطبيعة، فينبغي الهجرة منها بحيث لا يُسمع أذانها ويخفى جدرانها.

٥٨ - بحار الأنوار، ج٦١، ص١٢٩.

٥٩ - الصف٤.

٦٠ - عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٢٧٥. بحار الأنوار، ج١٠٢، ص١٢٩.

٦١ - بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٣٤٥.

٦٢ - بحار الأنوار، ج٥١، ص٥٣، ج٢٤، ص١٠٠.

٦٣ - الكافي ج١، ص٣٣٩، الرواية١٤.

٦٤ - العجف بالتحريك الهزال والاعجف المهزول والانثى العجفاء والعجفاء يجمع على عجف كصماء على صم.

٦٥ - تفسير القمي ج ١ ص٢٩٥. بحار الأنوار ج ٢٢ ص٤٢٩.

٦٦ - آل عمران٣١.

٦٧ - العروة ما يتمسك به من الحبل وغيره.

٦٨ - بحار الأنوار، ج ٤، ص ٨.

٦٩ - آل عمران١١٢.

٧٠ - الأمالي للشيخ الصدوق ص٣٥٧. بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٢٩.

٧١ - المائدة٥٤.

٧٢ - الذمام بالكسر الحق والحرمة والعهد والكفالة والأمان.

٧٣ - مصباح المتهجد ص٢١٢. بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٤.

٨

المطهرون عند الله

(٨)
المطهرون عند الله

في بداية الحديث، ينبغي لنا أن نذكر نص الآيات المباركة الواردة قبل آية التطهير وبعدها، وأيضاً عدداً من مئات الأحاديث الواردة في هذا المجال.

وأمّا الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[1] فآية التطهير، من أهم الآيات الدالّة على الطهارة المطلقة والشاملة لأهل البيت عليهم السلام.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٢].

لا نريد أن نذكر ما تحدَّث عنه الآخرون حول هذه الآية، ولكن نحاول التطرق إلى جوانب أخرى في هذه الآية المباركة أوبالأحرى في مقطع منها. فقبل الغور في الحديث، لا بأس بأن نشير إشارة خاطفة إلى بعض شئون هذه الآية فنقول:

شأن نزولها

لقد وردت في شأن نزول هذه الآية روايات كثيرة تزيد على السبعين، وما ورد منها من طرق أهل السنة أكثر مما ورد منها من طرقنا، فقد أخرجوها بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلة بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي وعبد الله بن جعفر وعلي والحسن بن علي عليهم السلام، في قرابة من أربعين طريقاً.

وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وأيضاً عن أم سلمة وأبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمروبن ميمون الاودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً.

وإليك نصّ إحدى تلك الأحاديث الواردة عن طريقنا:

«أبوعمروعن ابن عقدة عن أحمد بن يحيى عن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي إسحاق عن عبد الله بن معين مولى أم سلمه عن أم سلمه زوج النبي ﷺ إنها قالت: نزلت هذه الآية في بيتها "إنَّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" ، أمرني رسول الله ﷺ أن أومى إلى علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فلما أتوه، اعتنق علياً بيمينه والحسنَ بشماله والحسينَ على بطنه وفاطمة عند رجليه ثم قال: اللهم هؤلاء أهلي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات قلت: فأنا يا رسول الله فقال: إنَّك على خير إن شاء الله»(٣).

«وروى أبوسعيد الخدري قال: لمّا نزلت هذه الآية، كان رسول الله ﷺ يجئ إلى باب فاطمة وعلي تسعة أشهر كلّ صلاة غداة ويقول: الصلاة يرحمكم الله إنَّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهِّركم تطهيراً. .»(٤).

وفي كنز العمال:

«محمد بن العباس عن احمد بن محمد بن سعيد عن الحسن بن على بن بزيع عن إسماعيل بن بشار الهاشمي عن قتيبة بن محمد الأعشى عن هاشم بن البريد عن زيد بن عليٍّ عن أبيه عن جدِّه عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ في بيت أمّ سلمه فأتى بحريرة فدعا علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فاكلوا منها، ثم جلَّل عليهم كساءً خيبرياً، ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. فقالت أم سلمه: وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال: أنك إلى خير»(٥).

«عن ابن عيسى عن ابن فضال عن أبي جميلة عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ "ربّ اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً" قال يعني الولاية، من دخل في الولاية دخل في بيت الأنبياء»[٦].

قال العلاّمة الطباطبائي أعلى الله مقامه: "فإن قيل: إن الروايات إنما تدلُّ على شمول الآية لعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ولا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي كما يفيده وقوع الآية في سياق خطابهن، قلنا: إن كثيراً من هذه الروايات وخاصّة ما روي عن أم سلمة -وفي بيتها نزلت الآية- تصرح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي".

ثمّ قال:

"فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لهن، كوقوع الآية في سياق خطابهن. قلنا: إنما الشأن كلّ الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات، فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصَّة في نزول الآية وحدها، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي، ولا ذكره أحد حتّى القائل باختصاص الآية بأزواج النبي كما ينسب إلى عكرمة وعروة، فالآية لم تكن بحسب النزول جزءاً من آيات نساء النبي ولا متَّصلة بها وإنما وضعت بينها إمّا بأمر من النبي أوعند التأليف بعد الرحلة، ويؤيده أن آية "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ"[٧] على انسجامها واتصالها لوقدِّر ارتفاع آية التطهير من بين جُملها، فموقع آية التطهير من آية وقرن في بيوتكن كموقع آية اليوم يئس الذين كفروا من آية محرمات الأكل من سورة المائدة".

أقــول:

إنّ آية التطهير هي جزء من آية ٣٣ من سورة الأحزاب وهي:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٨).

وهذا الأمر لا يفرق بين ما إذا كان النبي ﷺ قد أمر بوضعها بينها، أو أنزلت كذلك وهوالأرجح. فهناك ارتباط بين صدر الآية وذيلها ولولاه لما ظهرت عظمة الآية (أعني آية التطهير)، والارتباط لا ينحصر بالصدر مع الذيل فحسب، بل يبدأ من قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ﴾(٩).

إلى أن ينتهي بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾(١٠).

ولإثبات هذا المدعى لابدّ من الحديث حول أحد المعاجز القرآنية العظيمة:

فأقول:

إن الملاحظ في المجتمع وعلى مستوى القادة أوالشخصيات المطاعة، والخطباء والدعاة والوعّاظ، أنهّم يتّبعون أساليب تربوية مختلفةً، تستهدف الوصول إلى مقاصد معيّنة، وهذه الطرق غالباً ما تكون مباشرة

بمعنى الأمر والنهي المباشر، وربما يذكرون نماذجَ من قصص طريفةً أوأمثلة تمثّل شواهد على المدّعى.

وهذا النمط من البيان وإن كانت له إيجابيّاته شيئاً ما، إلاّ أن سلبياته مضاعفةٌ وذلك لأنه يواجه الإنسان نفسَه مباشرةً، والأغلبُ الأعمُّ من الناس أياً كان له تعلقٌ شديد وارتباط وثيق بنفسه، ويصعب عليه تقبّل النصيحة من الآخرين.

والإسلام بدوره -المدرسةُ المستقلةُ والمتكاملة في كافة جوانبه- قد اتَّبع أساليب مميَّزة في مجال الإرشاد والتبليغ، وهنا لسنا بصدد الحديث عن تلك الأساليب سواء من زاوية الإسلام أوالمدارس الأخرى[١١]، بل نريد بيان أحدِ الجوانب التربوية المميَّزة في القرآن الكريم الذي هوفي الحقيقة أعظم معجزة من معاجزه، ذلك لأنه يتعلق بأبرز غاية من غاياته، ألا وهي الهداية (**هدىً للمتقين، هدىً للناس**) التي هي موضوع هذا الكتاب السماوي والأساس لجميع أبحاثه.

فجميع توجيهات القرآن تنظر في هداية البشرية بأسلوب وآخر، وجميع القصص والأمثال وو... تنصبُّ في مجرى واحد وهي الهداية، بطريقه لا مثيل لها.

فالقرآن نراه يُربط قضيّةً بأخرى حتى يتصور الإنسان أنه لاعلاقة بينهما والحال أنّ العلاقة بينهما وثيقة إلى أبعد ممّا يتصوَّر.

فالإنسان يشرع في تلاوة قصة قرآنية فلا يري نفسه إلاّ وقد انغمر في وادي التربية والهداية وهذا الأمر غير منحصر بنوع واحد بل يشتمل على

أنواعٍ شتّى لا تُعدّ ولا تحصى، تفتقر إلى دراسة تفصيليّة ليس هنا محلّها. ولغرض توضيح ما نحن بصدده نذكر أمثلة ثلاثة:

المثال الأوّل:

قال تعالى في حديثه عن شئون الحياة الدنيوية:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(١٢).

فالأمر وإن كان يرتبط بالوسائل المادية التي يقصد بها السبيل ولكنَّه تعالى بأدنى مناسبة يقول:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١٣).

ومن الواضح أن السبيل هاهنا، إشارة إلى السبيل المعنوي والهداية النفسانية. وهذا كقوله تعالى:

﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(١٤).

المثال الثاني:

عند حكاية حالة إبراهيم مع قومه، قال سبحانه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمه مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١٥].

وأنت تلاحظ أنّ بداية الحديث كان حول قضيّة خارجية تتعلّق بمواجهة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وقد استخدم إبراهيم الحكمة في هذا المجال، ولكن القوم توسّلوا في الجواب بأمرٍ موهوم. ثمّ إنه بدأ بمخاطبتهم ثانية بنحوآخر وذلك بتعريف ربّه سبحانه وتعالى، وفي هذه المرّة، انقلب الخطاب إلى دعاء، وهكذا استمرّ إلى أن وصل إلى مستوىً آخر وهوالتوجّه إلى الآخرة، وفي النهاية تمحّض الحديث في بيان وتوصيف الجنّة والنار.

المثال الثالث:

قال تعالى في بيان المستفسرين عن عدد أصحاب الكهف:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا

﴿يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا، وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾(١٦).

والحديث عن أصحاب الكهف حديثٌ جميل وشيِّق للغاية، خصوصاً في المرحلة الأخيرة من القصّة وهي مرحلة الاستنتاج، فالقارئ للقرآن الكريم وهومنغمر في القصّة -بطبيعته- يريد أن يعرف عدد أصحاب الكهف هل هم ثلاثة، أوخمسة، أوسبعة؟ لا يرى نفسه إلاّ وقد دخلَ في عالمٍ آخر يختلف تمامًا عن عالمه الأوَّل وهوعالم المعنى وتهذيب النفس، حيث يرشده ربّه بأن لا يقول لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله، هذا والحال أنَّ القصّة لم تنتهِ بعدُ بل هي مستمرّة. فالارتباط الموجود بين تلك القضيّة الأخلاقيّة وهذه القصّة ليس من نوع الارتباط المباشر، بل هوارتباط غير مباشر، يتعلَّق بالجانب الهدائي للقرآن الكريم، ومن الطبيعي أنّ هذا النمط من عرض للمسائل الأخلاقيّة، أشد وقعاً في النفوس.

الإعلام الحديث

إنّ الملاحظ اليوم على مستوى الإعلام الحديث سيما النمط الغربي منه، أنّه من خلال الأفلام المهيّجة وتحديداً في المواقع الحسّاسة منها، تُدرج مشاهد خاصة لا علاقة لها بالذي سبقها أصلاً، ولكنَّ لم تُعرض إلاّ لأجل أن يتأثَّر المشاهد بها حال انشغاله وانشداده بأمرٍ آخرَ انقادت إليه

نفسُه، ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك الإنشداد على ما أدرج مهما كان ذلك الشيء. فقد تبيَّن أنَّ هناك علاقة بين القضيتين ولولم تكن بنحومباشر، وربّما يكون الغرض المهم من العرض إنّما هو ذلك الأمر الطارئ ليس إلاّ، وإن جميع الأمور المحيطة به مع كثرتها، ما هي إلاّ ملابسات وتغطيات.

وهذا الأمر يسري في عرض الأخبار، فياترى ما هي العلاقة بين عرض الأخبار وبين الدعاية التّي تبثّ من خلالها؟ وهكذا الأمر بالنسبة إلى الإعلانات المنصوبة في ميادين الألعاب بل على صدور اللاعبين.

وهذا النوع من الإعلام له آثاره العظيمة -سلبيّة كانت أوإيجابيّة- لأنّ طبيعة النفس الإنسانيّة عندما تواجه حادثة ما، لا يمكن أن تنطبع فيها تلك الحادثة وحدها فحسب، بل سوف ينطبع كلّ أمر له أقل المساس بتلك الحادثة، وهذا الأمر هوالذي يسمّى "بتداعي المعاني" وهومن أهم المسائل المبيّنة في علم النفس.

الإنترنت والإعلام

وفي السنوات الأخيرة نلاحظ أنَّ شبكة الإنترنت قد ارتبطت بأكثر دول العالم عن طريق الحاسب الآلي، فنحن نلاحظ فيها هذا الأسلوب من الإعلام بشكل واضح، فالمستخدم الذي يريد البحث عن موضوع (**البترول**) مثلاً نراه يواجه مواضيع أخرى غير مقصودة بالذات، بل لم يكن يتصوَّر الورود فيها، فيرى نفسه -ومن غير شعور- وقعَ في عالم السيّارات وقرأ إعلاناً عنها وبمجرَّد أن ينتهي من القراءة أوفي ضمنها،

يواجه موضوعاً آخر متعلِّقا بأحد البرامج للحاسب الآلي وهكذا يخوض في مجالات متنوِّعة من غير قصدٍ وإرادة، بل ربَّما يكون المحور لجميع تلك القضايا، أمرٌ واحدٌ هوالمقصود بالذات للمشرفين على الشبكة. وغالباً ما يكون أمراً سلبياً يُستهدف منه انحراف المجتمع عن الله وإشغاله بأمور الدنيا لأجل استثماره ونهب ثرواته.

استغلال المناسبات

وأبرز من هذا النمط من الإعلام وألطف منه، هوالاستفادة من المناسبات البسيطة لعرض ما هوالأهم، كما يروى عن رسول الله ﷺ أنّه سُئل عن الخاتم قال:

«**العقيق فلا تعقّوا الوالدين**» فما هي المناسبة بين العقيق الذي هونوعٌ من الحجر وبين عقوق الوالدين الذي هومن المفاهيم الخلقية ؟

الجواب:

ليس بينهما أيُّة مناسبة من ناحية معنوية أصلا، إلاّ أن هناك تشابه لفظي قد استغله الرسول ليضرب على الوتر الحسّاس وينبِّه السائل إلى خطورة عقوق الوالدين، فانظر إلى لطافة الأسلوب، لتعرف أن الإنسان الهادي يكون جميع كلامه مستغرقاً في الهداية.

وهذه الظاهرة الجميلة كثيراً ما نشاهدها في كلمات المعصومين عليهم السلام خصوصا عندما يسأل عن حالهم: "**كيف أصحبت؟**" أو "**كيف أمسيت؟**" والجواب الطبيعي لهذا السؤال هو **بخير والحمد لله** ولكننا

نشاهد أئمتنا لا يكتفون بذلك بل يستفيدون من السؤال، لطرح مفاهيم أخرى أخلاقية أو اجتماعية أو غيرها. ونحن في هذا البحث نذكر أمثلة مختصرة من مئات النماذج الموجودة في مصادرنا الروائية فنقول:

«عن الصادق عن جده عليه السلام قال: سُأل الحسين بن علي فقيل له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله: قال: أصبحت ولي رب فوقي والنار أمامي والموت يطلبي والحساب محدق بي.. فأي فقير أفقر مني»(١٧).

«عن الحسين بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله اتبعوا الجنازة ولا تتبعكم، خالفوا أهل الكتاب، وان رجلاً قال له: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين قال: خير من رجل لم يمشي وراء جنازة ولم يعد مريضاً»(١٨).

«دخلت أم سلمه على فاطمة عليها السلام فقالت لها: كيف أصبحت عن ليلتك يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قالت: أصبحت بين كمد وكرب، فقد النبي وظلم الوصي هتك والله حجابه»(١٩).

«قيل لفاطمة عليها السلام كيف أصبحت يا ابنة المصطفى قالت أصبحت عائفة لدنياكم قالية لرجالكم لفظتهم بعد إن عجنتهم فأنا بين جهد وكرب»(٢٠).

«وقال المنهال للإمام زين العابدين عليه السلام: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ قال: أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم»(٢١).

وأمّا **القرآن الكريم**: فقد أعجز البشرية في هذا الأمر، فمن المستحيل أن يُبيّن حوادث أوقضايا متسلسلة من غير أن تكون هناك علاقة وثيقة بينها، ولكن الشأن كلّ الشأن في فهم تلك العلاقة أوالعلاقات، وهذا ما

يفتقر إلى الدقة والتأمّل ولا يصل إلى ذلك إلاّ من كان ذا حظ عظيم، رزقنا الله تعالى ذلك.

فمن الضروري لمن أراد أن يغور في عمق القرآن، أن يلاحظ تسلسل الآيات -من بعدها الهدائي- بعين البصيرة، كي يمكنه ربط المواضيع المختلفة بعضها ببعض.

النبي ينبوء ويحذر!

بعد تقديم هذه المقدَّمة سوف نبدأ في بيان السرّ في وجود آية التطهير في ضمن آيات نساء النبي فنقول:

إنَّ هناك ارتباط بين نساء النبي ﷺ وبين أهل البيت عليهم السلام:

فهناك مواجهة ستقع بين أم المؤمنين وبين من يمثّل أهل البيت، أعني عليّاً عليه السلام، وهناك خروج من البيت بل من المدينة إلى البصرة على ولي أمر زمانها أمير المؤمنين عليه السلام وذلك لأجل القضاء على حكومته، طبقاً لخطّة مركّزة بقيادتها بمعاضدة طلحة والزبير وجماعة آخرين من أهل النفاق، وهي فتنة مُضِلّة قد جرّت كثيراً من المسلمين السُذّج نحو الانحراف. ولأهميتها وخطورتها نشاهد أنّ رسول الله ﷺ كان يخبر عنها ويحذّر عائشة من الوقوع فيها[٢٢].

«ففي الحديث من كتاب الخرائج، روي أن النبي ﷺ قال: ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب فتنبحها كلاب الحوأب؟! وروي أنه لما أقبلت عائشة مياه بنى عامر ليلاً، نبحتها كلاب الحوأب فقالت: ما هذا

قالوا الحوأب قالت: ما أظنني إلاّ راجعة ! ردوني إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: كيف بإحداكن إذا نبح عليها كلاب الحوأب؟!»(٢٣).

«الحسن بن محمد معنعنا عن أبي الطفيل، رضى الله عنه، قال: سمعت أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام يقول: علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ وعائشة بنت أبي بكر أن أصحاب الجمل وأصحاب النهروان ملعونون على لسان النبي ﷺ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»(٢٤).

والجدير بالذكر ما ورد في حديث طويل بالنسبة إلى يوم الغدير:

«... وأمر علياً عليه السلام أن يجلس فى خيمة له بإزائه... ثمَّ أمر أزواجه وجميع نساء المؤمنين معه أن يدخلن عليه ويسلِّمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن...»(٢٥).

القرآن يخبر عن الواقعة

والآن قد حان وقت الدخول في صلب الحديث أعني العلاقة بين آيات نساء النبي وآية التطهير، فنقول:

إنّ الآية تبدأ بقوله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى﴾ (٢٦).

فالآية تخاطب نساء النبيّ وتريد منهنّ أن يقرن في بيوتهن ولا يخرجن من البيت، في أي ظرف من الظروف. وليس القرّ بمعنى البقاء في البيت، لأنّ هذا شأن كلّ امرأة ولا يختص بنساء النبي، بل إنّما المراد

الثبات المستمرّ كما تدلّ عليه الكلمة، قال الإصفهاني في مفرداته:

"قرّ في مكانه يقرّ قراراً، إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القُرّ وهوالبرد، وهو يقتضي السكون، والحرّ يقتضي الحركة".

وقد فهمت أم سلمة ذلك حيث خاطبت عائشة:

«عن عبد الحكم القتيبي عن أبي كبسة ويزيد بن رومان قالا: لما اجتمعت عائشة على الخروج إلى البصرة، أتت أم سلمة رضى الله عنها وكانت بمكة، فقالت: يا ابنت أبي أميه: كنت كبيرة أمهات المؤمنين وكان رسول الله ﷺ يقمؤ في بيتك وكان يقسم لنا في بيتك... إنك سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته وحجابه مضروبة على حرمه وقد جمع القرآن ذيلك فلا تبذخيه وسكنى عقيراك فلا تضحى بها الله من وراء هذه الأمة... إلى آخر الحديث»(٢٧).

ولتأكيد ذلك اتبعتها قوله تعالى: "**ولا تبرجن**" وبالنسبة إلى هذه الكلمة أيضاً يقول صاحب المفردات:

"تبرّجت المرأة: ظهرت من برجها أي قصرها"

وهذا شأن من يتزوّجها النبي ﷺ، لأنّها ليست كأحد من النساء في جوانب عديدة وذلك حيث أنّ محمّداً ﷺ لم يكن كأحد من الرجال فهورسول الله وخاتم النبيين، وما دام قد خضعت زوجة النبي لشروطه، فلا بدّ لها من تحمّل جميع العواقب لها، كما أنّه بإمكانها أن تكتسب جوانب روحيّة كبيرة من خلال معاشرتها النبي إن كان فيها الأرضية والقابلية كما كانت في خديجة الكبرى ﷺ، وفي غير هذه الصورة،

فالأفضل لها أن تنفصل عن النبي ﷺ فقد صرح الله تعالى بذلك وقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾(٢٨).

وهذا شأن كلّ من تُحمَّل على عاتقه مسئوليّة الأمّة فتصرفاته وحالاته وارتباطاته ومعاملته مع الناس كلها تتّخذ صبغةً مميّزة وتتقيّد بقيود وكلّ واحد أوشيءٍ له علاقة ما بتلك الشخصيّة، يُتوقع منه نفس التوقُّعات المطلوبة من القائد.

هذا:

وكيف بالرسول الذي هوالأسوة الحسنة لجميع الأمّة بل لجميع المجتمعات على مرّ التاريخ، فالأنظار كلّها متوجّهة إليه وكلّ حركاته وسكناته، مترصّدة من قبل المجتمع عامّة والأعداء خاصة، وهذا الأمر يسرى بالنسبة إلى أزواجه أيضاً فهنّ لسن كأحد من النساء. والجدير بالذكر أنّ الله سبحانه عندمّا يخاطب نبيّه بقولِه: "**يا أيهّا النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الله**" ... يقول: "**يا نساء النبي لستنّ**" ... ولا يخاطبهنّ الله بصورة مباشرة بل يريد من نبيّه أن يخاطبهنَّ والمفروض أن يقول ﷺ مخاطباً لنسائه (**يا نسائي**) أو(**يا أزواجي**). ولكنّه ﷺ يقول يا نساء النبي وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على ما ذكرنا من أنّ الأمر يرجع إلى النبي كنبيٍّ وأزواجه كأزواج للنبي ﷺ.

والحاصل أنّ هذه النصيحة بل هذا الأمر الواجب وهو(الاستقرار والجلوس الدائم في البيت) لم يُوجَّه إلى نساء النبي من غير دليل بل

مضافاً إلى أنّ هذا الأمر ربّما كان مكراً إلهيّاً في قبال الماكرين الذين كانوا بصدد استغلال نساء النبي (خصوصاً اثنتان منهما) كذريعة للوصول إلى نواياهم وتوجيه أعمالهم، مضافاً على هذا، هناك أمرٌ أهمّ من ذلك سيقع في المستقبل وهوخروج أحد زوجات النبي أعني **عائشة** من البيت وهي تقود عسكراً لأجل محاربة وليّ أمر زمانها !

فكما أنّ الرسول ﷺ قد أنبأ عنها مشيراً إلى كلاب الحوأب، فالقرآن الكريم أيضاً أشار إلى خروجها وحذّرها كلّ التحذير وأتمّ الحجّة عليها بقوله:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى﴾(٢٩).

والإخبار بالغيب - والغيب غير مختصّ بحوادث كونية (كزلزلة الساعة) أوعسكرية (كغلبة الروم) بل تشمل حالات فرديّة مصيريّة - أمرٌ متداولٌ في القرآن الكريم.

ونحن لوتأملنا في القرآن لاكتشفنا أنباءات غيبيّة كثيرة:

منها: ما تتعلق بمتعة الحج:

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣٠). فالآية تتعلق بحكم من الأحكام الفرعيّة المتعلقة بالحج ولا علاقة لها بالعقيدة أصلاً، ولكننا نشاهد أنّها تذيّلت بذيلٍ خطير وهوالتنبيه على تقوى الله والتذكّر بعذاب الله الشديد. فيا ترى ما هي

العلاقة بين الصدر والذيل ؟

أقول:

ليست هناك علاقة من ناحية تركيبيّة بينهما أصلاً بل العلاقة المتواجدة من نمط آخر، ترجع إلى الجانب الهدائي للقرآن الكريم الذي شرحناه فيما مضى شرحاً وافياً، فهناك من سوف يرقى منبر رسول الله في إمارته فينهى عن نوعين من المتعة ويعاقب عليهما ! وهما:

متعة النساء ومتعة الحج. وهذا تهديد مُسبق يستهدف الوقوف دون تلك الفتوى المخالفة للكتاب وفي نفس الوقت إتماماً للحجّة ولئلا يكون للناس على الله حجّة.

والجدير بالذكر أنّ نفس الأسلوب قد ورد في آية الفيء وهو من الأمور التّي أنكرها مخالفون، قال تعالى:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّه وَلِلرَّسُول وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣١).

ولنرجعْ إلى الحديث حول آية التطهير:

نساء النبي والتقرب إلى الله

فلربّما يتوجّه هاهنا نوع من الاعتراض بالنسبة إلى نساء النبيّ ومسئوليّتهن قبال الله وكيفيّة تقربهنّ، فلم يغفل القرآن عن هذا الأمر بل

ركّز على ثلاث نماذج من العبادات يمكن الاكتفاء بها لشموليّتها، ينبغي لنساء النبي ممارستها وهنّ مستقرات في بيوتهن:

١ - ما تتركّز على نموّ الروح وكمال الفرد وهي: إقامة الصلاة ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾(٣٢).

٢ - ما تشتمل على جانبين - فردي واجتماعي - مختلفين وهي: إيتاؤهنّ الزكاة ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾(٣٣).

٣ - ما لها الشموليّة التامّة وتمثّل جميع العبادات وهي الإطاعة ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٣٤).

نساء النبي وأهل البيت:

وهاهنا سؤال يطرح نفسه وهو:

بمّا أنّ أهل البيت أيضاً لهم تعلّق برسول الله بل تعلّقهم أشدّ من غيرهم فمن المفروض أن تشملهم جميع الأحكام التّي فرضت على نساء النبيّ، فكيف بخروج الحوراء فاطمة ﷺ على أبي بكر... فلأجل أن يندفع هذا التوهّم ولأجل أن يُميّز هؤلاء ﷺ عن غيرهم ولأجل أن تُثبت أحقّيتهم وبطلان معارضيهم وأعدائهم عند دوران الأمر بينهم وبين غيرهم، لئلاّ تقع الأمّة في ورطة الشبهة والخلاف... لأجل ذلك كلّه، قال سبحانه مباشرةً:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(٣٥).

فهم على أيّ حال مطهّرون من الرجس بنحومطلق قليله وكثيره، مادّي ومعنويّ. فظهر الارتباط السياقيّ والتلاحم الهدائي بين صدر الآية وذيلها ويا لها من مُعجزة عظيمة لا يصل إليها إلاّ من له حظّ وافر في معرفة أساليب التربيّة وعلم النفس.

البيت لا بيوتكن !!

ومن الواضح أنّ كلمة (**أهل البيت**) هاهنا بنحوالعطف لم يأت إلاّ لأجل أنْ يفرّق سبحانه بين من يعيش في بيت محدود بذلك الإطار المادي أعني الطين والحجر والخشب وبين من هو نور في الأصلاب الشامخة والأنوار المطهّرة وإنّما نزل إلى هذه البيوت لهداية البشرية إلى الله.. فإذاً كم من فرق كبير بين البيت وبيوتكن، فأهل البيت هم أهل بيت النبوة والرسالة والوحي والرحمة والكرامة والعصمة وهم الذين قال تعالى في شأنهم

﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾[٣٦].

والتنكير هاهنا يدل على العظمة، وهناك رواية تؤكّد هذا الأمر، إليك نصّها:

﴿**عن عمر بن الخطاب عنه ﷺ: فاطمة وعلي والحسن والحسين في حظيرة القدس في قبة بيضاء سقفها عرش الرحمن عزّ وجلّ**﴾[٣٧].

ولا يخفى اللطف الكامن في توسيط البيت لبيوتكن في قوله تعالى: «**وقرن في بيوتكن ... أهل البيت ... ما يتلى في بيوتكنّ**».

فلا يمكن لأحدٍ أن يختلج في ذهنه أنّ البيت هو بيوتهن إلاّ المعاند المكابر وهوليس من مخاطَبينا نحن.

سد الأبواب إلا بابه

ومن الطبيعي أن لا يسدّ رسول الله باب هذا البيت، لأنّه ليس من بيوت الدنيا ولا تترتب عليه أحكام تلك البيوت.

«**تفسير الإمام روى عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث سدّ الأبواب أنه قال: لا ينبغي لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر، يبيت في هذا المسجد جنبا إلاّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والمنتجبون من آلهم الطيبون من أولادهم**»(٣٨).

الحصر بإنما

ولا يخفى أيضاً في هذا الحصر من الإشارة إلى الوقوف في قبال كلّ من يريد أن يتجاوز هذا الحدّ ومنهم نساء النبي، فالآية تقول بأنّ الإذهاب من الرجس بمعنى الكلمة والتطهير الكامل الموصل إلى العبودية المطلقة لله تعالى، غير متوفر في أحدٍ، مهما بلغ من المرتبة، غير أهل البيت وقسم من الأنبياء.

﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾(٣٩).

وأمّا سائر الناس فيقول عنهم تبارك وتعالى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٤٠).

فكيف بهذا المقام السامي الذي وصلوا إليه ؟!

ونقرأ في زيارة الجامعة الكبيرة:

«مواليَّ لا أحصي ثناءكم ولا أبلغ من المدح كنهكم ومن الوصف قدركم وأنتم نور الأخيار وهداة الأبرار وحجج الجبار»

الضمير المذكر "كمْ"!

ينقل العلاّمّة المجلسي كلمةً عن الشيخ المفيد ﷺ إليك نصّه:

"لا خلاف بين أهل العربية أن جمع المذكر بالميم وجمع المؤنث بالنون وأن الفصل بينهما بهتين العلامتين ولا يجوز في لغة القوم وضع علامة المؤنث على المذكر ولا وضع علامة المذكر على المؤنث ولا استعملوا ذلك في حقيقة ولا مجاز ولما وجدنا الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بخطاب النساء وأورد علامة جمعهن من النون في خطابهن فقال: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض إلى قوله وأطعن الله ورسوله، ثم عدل بالكلام عنهن بعد هذا الفصل إلى جمع المذكر فقال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً" فلما جاء بالميم وأسقط النون، علمنا أنه لم يتوجه هذا القول إلى المذكور الأول بما بيناه من أصل العربية وحقيقتها، ثم رجع بعد ذلك إلى الأزواج فقال: واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله،

والحكمة إنَّ الله كان لطيفاً خبيراً، فدل بذلك على أفراد من ذكرناه من آل محمد عليهم السلام بما علقه عليهم من حكم الطهارة الموجبة للعصمة وجليل الفضيلة وليس يمكنكم معشر المخالفين أن تدعوا أنه كان في الأزواج مذكوراً رجل غير النساء وذكر ليس برجل، فيصح التعلق منكم بتغليب المذكر على المؤنث إذ كان في الجمع ذكر وإذا لم يمكن ادعاء ذلك وبطل أن يتوجه إلى الأزواج فلا غير لهن توجهت إليه إلاّ من ذكرناه ممن جاء فيه الأثر على ما بيناه"(٤١).

أقول: إنّ قضيّة نساء النبي تبدأ من قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ﴾(٤٢).

والأمور الراجعة إليهن سواء بصريح العبارة أوبضمير الغائب أوالمخاطب تبلغ ثمانيةَ وعشرين مورداً، ستّةً وعشرون منها قبل آية التطهير واثنان بعدها.

الإرادة التكوينية لا التشريعية:

من المعلوم أنّ الله إذا أراد شيئاً، فمجرد تعلّق الإرادة بذلك الشيء يساوي تحقّقه ووقوعه من دون أي فاصلٍ في البين، وأراد الله ليذهب الرجس عن أهل البيت وقد تحقّق ذلك وهذا لا يتناسب مع التعبيرات الواردة بالنسبة إلى نساء النبي حيث اشتمالها على النصيحة. والتحريض وأحياناً التهديد كما في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(٤٣).

وهذه الإرادة هي الإرادة التكوينيّة في قبال الإرادة التشريعيّة كقوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾(٤٤).

ولوكانت الإرادة هاهنا تعني التشريعيّةَ منها وكان المراد من الرجس، الأمور التّي مرت قبل هذه الآية، فلا معنى إذاً لحصرها بنساء النبي. فالحصر لا يتلاءم إلاّ مع العصمة بمستواها الرفيع المنحصرة بهم عليهم السلام، فالله هوالذي طهّرهم تطهيراً حيث سقاهم ربّهم شراباً طهوراً.

ماذا كان يتلى في بيوتهن:

ولم ينتهِ الحديث عن نساء النبي بعدُ، بل هناك أمر آخر يجب التوجّه إليه وهو

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(٤٥).

فما هي الآيات التّي كانت تُتلى عليهن وما هي الحكمة ؟ القدر المتيقنّ هو آية التطهير التّي جاءت قبل هذه الآية وقد كان يتلوها رسول الله في بيوتهنّ حيث أنّ بيوتهنّ كانت متصلةً ببيت فاطمة، ولعلّ الرسول كان قاصداً إسماعهنّ للآيات عندما كان يتلوآية التطهير -كما مرّ الحديث الدال على ذلك- وقد أشار الحديث إلى نقاطٍ يمكن الاعتماد عليها كدليل لإثبات المدّعى وهي:

«في رواية أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية، كان رسول الله ﷺ يجئ إلى باب فاطمة وعلى تسعة أشهر كل صلاة غداة فيقول الصلاة يرحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً»(٤٦).

فلم يكن رسول الله يدخل البيت بل كان يقف أمام الباب، سواء الباب الذي كان ينتهي إلى بيت نسائه أوالباب الذي كان ينفتح على المسجد. ومن الطبيعي أنّ الناس كانوا يسمعون كلامه ﷺ ونساء النبي كنّ يسمعن ذلك بلا ريب، خصوصاً أنّ هذا الأمر كان مستمرّاً طوال تسعة أشهر في كلّ يوم وقت الصلاة. وقد كان ﷺ يريد أن يبيّن منزلتهم عليهم السلام كما دلّ عليه الحديث الصادر عن الإمام الباقر عليه السلام.

اللطيف الخبير

ثمّ لماذا تذيّلت الآية الأخيرة بهاتين الصفتين ؟!

الظاهر أنّ التأكيد على اللطيف خاصّة لأجل أنّ بيان تلك الآيات مع ما فيها من النصائح والمواعظ وآية التطهير، نابعٌ من مصدر اللطف الإلهي بنساء النبي فربّما يتفاعلن مع الجانبين: الجانب الراجع إلى أنفسهنّ والجانب الراجع إلى أهل البيت عليهم السلام.

وأمّا بيان الخبير فلربّما هوإشارة لما سيحدث من المشاكل والمنازعات بينهنّ وبين النبيّ وأيضاً بينهنّ وأهل البيت، خاصّة ما سيحدث في المستقبل من الحرب بين إحدى النساء وبين أمير المؤمنين عليه السلام.

المطهرون هم مفسروا مكنون القرآن:

وختاماً ينبغي لنا أن نشير إلى مسألة أخرى كحسن الختام وهي:

في سورة الواقعة

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(٤٧).

وهاهنا قد حصر سبحانه المطهّرين بتفسير القرآن الكريم الذي هوفي كتاب مكنون. ولوجمعنا هذه الآية مع آية التطهير لوصلنا إلى النتيجة التاليّة وهي:

"إنّ مسّ الكتاب المكنون من شئون المطهرين ليس إلاّ".

جعلنا الله من المتمسكين بهم والسائرين على نهجهم والمهتدين بهداهم إنّه وليّ المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين.

المراجع والتوضيحات:

١ - الأحزاب٢٨-٣٤.

٢ - الأحزاب٣٣.

٣ - شواهد التنزيل، ج ٢، ص٩٥. بحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٠٨.

٤ - شواهد التنزيل، ج ،٢ ص٤٧. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢١٢.

٥ - تأويل الآيات ص٤٥. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢١٣.

٦ - بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٣٠.

٧ - الأحزاب٣٣.

٨ - الأحزاب٣٣.

٩ - الأحزاب٥٩.

١٠ - الأحزاب٣٦.

١١ - قد كتبنا في هذا المجال كتاباً سميناه معالم التبليغ.

١٢ - النحل٨.

١٣ - النحل٩.

١٤ - الأعراف٢٦.

١٥ - الشعراء ٦٩-٩١.

١٦ - الكهف٢٢-٢٥.

١٧ - الأمالي للشيخ الصدوق، ص٦٠٩. بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٢٢.

١٨ - دعائم الإسلام، ج ١، ص ٤٣٢. بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٨٨.

١٩ - المناقب، ج ٢، ص٢٠٥. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص١٥٦ باختلاف.

٢٠ - جامع الاخبار، ص٩١. بحار الأنوار، ج٧٦، ص١٥ باختلاف.

٢١ - مثير الاحزان، ص١٠٥. بحار الأنوار، ج٤٥، ص١٤٣.

٢٢ - وللشهيد الصدر بحث حول هذا الموضوع في كتاب فدك في التاريخ.

٢٣ - الخرائج، ص٦٧. بحار الأنوار، ج١٨، ص١١٣.

٣٤ - تفسير الفرات، ص١٤١. بحار الأنوار، ج٣٢، ص١٢٧.

٢٥ - الارشاد، ج١، ص١٧٦. بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٨٦.

٢٦ - الأحزاب٣٣.

٢٧ - الاختصاص، ص١١٧. بحار الأنوار، ج٣٢، ص١٦٢.

٢٨ - الأحزاب٢٨.

٢٩ - الأحزاب٣٣.

٣٠ - البقرة١٩٦.

٣١ - الحشر٧.

٣٢ - الأحزاب٣٣.

٣٣ - الأحزاب٣٣.

٣٤ - الأحزاب٣٣.

٣٥ - الأحزاب٣٣.

٣٦ - النور٣٦-٣٧.

٣٧ - كشف الغمة، ج١، ص٥٢٦. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٧٦.

٣٨ - بحار الأنوار، ج ٨١، ص٦٣.

٣٩ - البقرة٢٥٣.

٤٠ - يوسف١٠٦.

٤١ - الفصول المختارة، ص٥٥. بحار الأنوار، ج١٠، ص٤٢٦.

٤٢ - الاحزاب٢٨.

٤٣ - الاحزاب٣٠.

٤٤ - البقرة١٨٥ .

٤٥ - الأحزاب٣٤ .

٤٦ - شواهد التنزيل، ج ٢، ص٤٧ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢١٢ باختلاف .

٤٧ - الواقعة٧٧-٧٩ .


٩
الوسيلة إلى الله

(٩)
التوسل إلى الله

لا شكَّ أنَّ نظام الكون يحكمه قانون العليَّة، أي أنَّ كلَّ معلول لا بدَّ وأن تكون له علَّة وسبب، فأبى الله أن يُجري الأمور إلاّ بأسبابها. وهذا الحكم يجري على جميع الحوادث الطبيعيَّة، فهناك تأثير وتأثُّر في الحوادث، بمعنى أنَّ العلَّة لها القدرة في إيجاد المعلول، والاعتقاد بمثل هذه القدرة العادية المتعارفة ليس من الشرك أصلاً، بل ينسجم مع الروح التوحيديَّة، وهومن صميم الإيمان بالله تعالى.

الاعتقاد بما وراء الطبيعة

يبقى سؤال في هذا المجال وهو:

هل الاعتقاد بقدرة ما وراء الطبيعة وما وراء القوانين العادية كالقدرة عند بعض الملائكة أوالناس (كالنبي ﷺ والإمام عليه السلام) يعدُّ من الشرك بالله؟

ثمَّ، هل الاعتقاد بقدرة الإنسان المتوفى، وتأثيره على الأشياء يسوق إلى الشرك، مهما كانت هذه العقيدة؟ وذلك لأنَّ الميت جمادٌ يفتقد الشعور والقدرة والإرادة، وبالنتيجة فالاعتقاد بأن الميت يُدرك ويسمع ويرى وأيضاً السلام عليه، واحترامه، وتعظيمه، ونداؤه، والتوسل إليه، وطلب الحاجة منه، كل ذلك شركٌ بالله‌تعالى ! لأنَّه يستلزم الاعتقاد بقوَّة

ما وراء الطبيعة لغير الله‌تعالى؟

وأيضاً: هل الاعتقاد بتأثير ترابٍ ما، كتراب قبر سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في شفاء المريض، أوتأثير مكان خاص كحرم الرسول صلى الله عليه وآله، في استجابة الدعاء، كلُّ ذلك من الشرك بالله‌تعالى؟ وهل هناك دليلٌ شرعيٌّ من الكتاب والسنَّة يمنع من هذه الأمور؟ .

أقول:

إن القائل بأن تلك الأمور من الشرك، متورِّط في أخس مظاهر الشرك ! ذلك لأنَّ الذي يعتقد بأنَّ العلل الطبيعيَّة لها التأثير في معلولاتها وقع -ومن حيث لا يشعر- في ظلمات الشرك وتورَّط في الانحراف، حيث اعتقد بأنَّ الأشياء الطبيعيَّة لها استقلالها الذاتي وهذا يعنى أنه شكَّل قطباً مستقلاً في قبال الله‌تعالى وقدرةً منعزلة عن قدرته تعالى! .

بإذن الله؟

فالموجود المرتبط به تعالى بجميع هويته وليس له حيثية وهويَّة مستقلةٌ، تأثيره غير الطبيعي كتأثيره الطبيعي لا يُستند إلى نفسه، بل كل ما يصدر منه فهومستند إلى الحق تعالى، وليس له دور ومهمَّةٌ مستقلَّة إلاّ أنَّه يكون مجرىً لمرور فيوضات الحق إلى الأشياء الأخرى، وشأنه شأن الملائكة في أداء مهمَّتهم. فهل الاعتقاد بأنَّ جبرئيل واسطة فيض الوحي والعلم، وميكائيل واسطة الرزق، واسرافيل واسطة الأحياء، وعزرائيل واسطة قبض الأرواح، هوشرك بالله‌تعالى؟

الشرك بالله تعالى

إنَّ الذين يتَّهمون الشيعة بالشرك هم المتورطون في أقبح أنواع الشرك، ذلك لأنَّهم قد قسَّموا الأعمال بين الخالق وبين المخلوق، فالأمور التي هي ما وراء الطبيعة خصَّصوها بالله تعالى والأمور الطبيعية جعلوها للمخلوقات!

فكون المخلوقات لها نطاقٌ معيَّنٌ من الأفعال غير النطاق الإلهي هونوع من الشرك في الفاعلية !!

فما يتوهمه هؤلاء لا يعارض أصل الإمامة فحسب، بل يتعارض مع أصل التوحيد والإنسان.

أمّا تعارضه مع أصل التوحيد، فلأنَّهم قد قسَّموا الأعمال بين الخالق وبين المخلوق حيث اعتقدوا أنَّ هناك من المخلوقات -وهي الموجودات الطبيعية - ما لها التأثير المباشر والمستقل في أعمالها وآثارها.

وأما تعارضه مع الإنسان، فحيث أنَّهم قد نزَّلوا من مستوى الاستعداد الذاتي للإنسان، فأوصلوه إلى حضيض الحيوانيَّة! علماً بأنَّ الإنسان هوخليفة الله في الأرض، وقد نفخ اللهسبحانه فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود له فهوأفضل من جميع الملائكة.

مضافا إلى أن التفكيك بين الميت والحي وتوهُّم الفرق بينهما، يعني أن كلَّ شخصية الإنسان هو بدنه الذي ينقلب إلى جماد، وهي فكرة مادية بحتة تعارض المعتقدات الإلهية.

ومن هنا نصل إلى عمق كلام رسول الله ﷺ كما في الحديث التالي: «**قال النبي ﷺ: إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاه سوداء في ليلة ظلماء**»[1].

الميزان في التوحيد والشرك

ثم ينبغي أن يعلم أن الميزان في التوحيد والشرك يتلخص في جملتين هما: **إنّا لله، وإنا إليه راجعون**.

أما الجملة الأولى فهي (**إنا لله**).

توضيحها:

لو اعتقدنا أن الموجودات في ذاتها وصفاتها وأفعالها هي من الله (إنا لله) فنحن قد عرفناها من منظار التوحيد الحقيقي، سواء كان ذلك الشيء له أثرٌ أوآثارٌ، أولم يكن كذلك، وسواء كانت الآثار طبيعيةً، أوكانت ما وراء الطبيعة.

فاللهُ ليس هو إله الملكوت والجبروت فحسب، بل هوإله العالمين، فهوقريب إلى الطبيعة بنفس قربه إلى ما وراءها، وله معيَّةٌ قيوميَّةٌ على جميع العوالم، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[2].

ويستفاد من الآية التعلق المحض وحقيقة "إنا لله"، حيث لا استقلالية لأعمال الأنبياء ما وراء إرادة الله‌تعالى، فالاعتقاد بموجود منفصلاً عن الله‌تعالى هوالشرك حقيقة، كما أن الاعتقاد بتأثير موجود على نحوالاستقلال، بمعزل عن إرادته تعالى، يعدُّ أيضاً من أقسام الشرك، سواء كان ذلك الأثر طبيعياً أم خارجاً عنها، فلا فرق بين خلق السموات والأرض، وبين حركة ورق الشجر، فكلُّها بإذن الله‌تعالى. ومن هنا نشاهد التأكيد في كثير من الآيات على هذه الحقيقة.

قال تعالى في بيان آثار الشجرة الطيبة:

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وقال في آثار البلد الطيب والبلد الخبيث:

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(٤).

وقال تعالى مبيناً المصائب التي ابتلي بها المسلمون الأوائل:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

وقال في بيان الإمدادات الغيبيَّة وتأثيرها في الانتصارات:

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٦).

وبالنسبة إلى الرسول قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٧].

وأمّا الجملة الثانية (**إنّا إليه راجعون**).

توضيحها:

إنَّ من حدود التوحيد هو "**إنا إليه راجعون**" فلونظرنا إلى موجود ما -أعم من النظر الظاهري المادي أوالباطني المعنوي- وتعاملنا معه من أجل أن يكون ذلك الشيء وسيلةً للوصول إلى الله‌تعالى، لا إنه هوالمقصد والغاية، فهذا هوعين التوجه إلى الله‌تعالى وحده.

فالائمة المعصومون عليهم السلام هم السبيل إليه، ونحن ننظر إليهم من هذا المنظار. وقد ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة:

«**أنتم السبيل الأعظم، والصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة، والباب المبتلى به الناس، من أتاكم نجى، ومن لم يأتكم هلك، إلى الله تدعون وعليه تدلُّون**»[٨].

وهم علامات للسائر إلى الله:

«**وأعلاماً لعباده، ومناراً في بلاده**»[٩].

« **السلام على الأدلاء على الله**»[١٠].

وهم الهداة والدعاة إلى الله:

«**السلام على الدعاة إلى الله**»[١١].

النتيجـــة

إن التوسل بهم عليهم السلام، وزيارتهم واستصراخهم والإستشفاع بهم وتوقُّع الكرامات منهم -التي هي أمور ما وراء الطبيعة- ليست من الشرك في شيء بل هي عين التوحيد.

وذلك:

أوَّلاً: ينبغي أن نعلم بأنَّ الأنبياء والأولياء قد وصلوا إلى مقام من القرب الإلهي بحيث أن الله تعالى قد خصَّهم بهذه الموهبة الربانية. كما يدلُّ على ذلك القرآن الكريم فبخصوص أهل البيت عليهم السلام قال تعالى:

﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾(١٢) فهذه الآية تدلُّ على قدرتهم الإلهية المعنوية، حيث أنَّهم وبإرادتهم قد فجَّروا العين وذلك لوصولهم إلى مستوى راقٍ من العبودية لله والتحرر من جميع القيود:

﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً**﴾(١٣).

قال في مجمع البيان:

"**يطهرهم عن كلِّ شيءٍ سوى الله، إذ لا طاهر من تدنَّس بشيءٍ من الأكوان، إلاّ الله. رووه عن جعفر بن محمَّد عليهما السلام**"(١٤).

ثانيا: إنَّ الذين يتوسلون بهم ويطلبون منهم قضاء حوائجهم، إنَّما ينطلقون من الرؤية التوحيدية، أي من منطلق "**إنا لله**"، فالتوسُّل بهم عليهم السلام هومن شئون التوحيد وطاعة الله‌تعالى، فهم الحبل المتصل بين الأرض والسماء وهم العروة الوثقى التي لا انفصام لها. وفي دعاء الندبة:

«أين باب الله الذي منه يؤتى؟ أين وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء؟ أين السبب المتصل بين الأرض والسماء؟»[١٥].

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١٦].

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمِّي، أي:

«تقربوا إليه بالإمام»[١٧].

فمن تأمَّل في حقيقة التوسُّل، عرف أنَّه هوالمنطبق والمنسجم مع النظام الكوني وفطرة الإنسان، فالذي ينكره، إنما هوفي ضلال بعيد ومنحرف عن الصراط المستقيم. ومن هنا نشاهد بني إسرائيل يقولون:

﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾[١٨] فيطلبون من موسى أن يدع لهم، وكذلك أولاد يعقوب عليه السلام يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١٩].

وفي خصوص الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

رَحِيمًا﴾(٢٠).

فالرسول له دورٌ رئيسي في قبول توبة العباد لوجاهته عند الله‌تعالى وقربه المعنويِّ، وهذا لا يختص بحال حياته، بل يشمل حال مماته أيضاً بل في هذه الحال يكون المجيء إليه آكد، فلا فرق بين حضوره وغيبته وفي زيارته ﷺ:

« اللهم وإني اعتقد حرمة نبيك في غيبته كما اعتقدها في حضرته، وأعلم أن رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي، في وقتي هذا وزماني، ويسمعون كلامي في وقتي هذا، ويردون سلامي، وانك حجبت عن سمعي كلامهم، وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم»(٢١).

فالمشكلة راجعة إلينا نحن المحجوبون لا إليهم عليهم السلام.

وأمّا بالنسبة إلى الاعتقاد بتأثير تراب قبر سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في شفاء المريض، أوتأثير مكان خاص كحرم الرسول ﷺ في استجابة الدعاء، فالحديث عنه يتطلب بحثاً آخر إلاّ أننا نشير إلى ذلك بإيجاز فنقول:

إنَّه ليس للتراب كتراب هذا التأثير ولا القبر كقبر بل الأثر كل الأثر يرجع إلى صاحبهما وليسا هما إلاّ وسيلة للتقرُّب إلى من يرتبط بهما، وهذا يعني التقرب إلى الله الشافي الذي أفاض هذا الاسم في أوليائه فصاروا وجهاً له ومرآةً ينعكس فيها ذلك الاسم.

وما أحسن ما قيل:

هنيئاً لمن زارَ خير الورى وحطَّ عن النفس أوزارها
فإن السعادة مضمونةٌ لمن حلَّ طيبة أوزارَها
أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سَكن الديارا

والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمَّدٍ وآله الطاهرين.

المراجع والتوضيحات:

١ - تفسير القمي، ج١، ص٢١٣، بحار الانوار، ج٨١ ص١٥٨ .

٢ - المائدة ١١٠ .

٣ - إبراهيم ٢٥ .

٤ - الأعراف ٥٨ .

٥ - آل عمران ١٦٦ .

٦ - الانفال٦٦ .

٧ - الرعد ٣٨ .

٩ - عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٢٧٤ . بحار الأنوار، ج١٠٢ ص١٢٩ .

٩ - عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٢٧٥ . بحار الأنوار، ج١٠٢ ص١٧ .

١٠ - عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٢٧١ . بحار الأنوار، ج١٠٢ ص٨ .

١١ - عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص٢٧١ . بحار الأنوار، ج١٠٢ ص٨ .

١٢ - الإنسان ٦ .

١٣ - الإنسان ٢١ .

١٤ - تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٢٢٣ .

١٥ - الإقبال، ص٢٩٧، بحار الأنوار، ج ١٠٢، ص ١٠٧ .

١٦ - المائدة ٣٥ .

١٧ - تفسير القمي، ج١، ص١٦٨ . بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٧١ .

١٨ - البقرة ٦١ .

١٩ - يوسف ٩٧-٩٨ .

٢٠ - النساء ٦٤ .

٢١ - البلد الامين، ص٢٧٦ . بحار الأنوار، ج١٠٠، ص١٦٠ باختلاف .

١٠

ذخيرة الله

(١٠)
ذخيرة الله

« السلام عليك أيتها الصديقة الشهيدة، السلام عليك أيتها الرضية المرضية، السلام عليك أيتها الفاضلة الزكيّة، السلام عليك أيتها الحوراء الإنسية، السلام عليك أيتها التقية النقية، السلام عليك أيتها المحدثة العليمة، السلام عليك أيتها المظلومة المغصوبة، السلام عليك أيتها المضطهدة المقهورة، السلام عليك يا فاطمة بنت رسول اللهورحمة اللهوبركاته»[١].

في بيان شخصيَّة الزهراء عليها السلام، قال الإمام الخميني قدس سره:

« الأسوة هي الزهراء عليها السلام»[٢].

«إنّها امرأة قد ربّت في حجرتها الصغيرة وبيتها المتواضع أناساً قد انبثق نورهم من البسيطة إلى عمق الأفلاك، وكان ذلك النور يتلألأ من عالم الملك إلى جانب الملكوت الأعلى، صلوات اللهوسلامه على هذه الحجرة المتواضعة التّي أصبحت تجلٍّ لنور العظمة الإلهيّة ومحلاً لتربية المصطفين من أولاد آدم»[٣].

وفي كلمة أخرى يشير إمامنا إلى الحديث المعروف المنقول في الكافي الشريف وهو:

«الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد عن ابن محبوب عن

ابن رئاب عن أبي عبيده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوما وكان دخلها حزنٌ شديدٌ على أبيها وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيُحسن عزاءها على أبيها ويُطيب نفسَها ويُخبرها عن أبيها ومكانه ويُخبرها بما يكون بعدها في ذرِّيتِها وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام»(٤).

ثم يُعلق الإمام على هذه الرواية فيقول:

"ظاهر الرواية هوأنّه كانت مراودة أي ذهاب وإياب كثير لجبرئيل الأمين وذلك في ٧٥ يوماً، ولا أظنّ حدوث هذا الأمر لغير الطبقة الأولى من الأنبياء العظام، بحيث يتراود إليهم جبرئيل الأمين في ٧٥ يوماً".

ثمّ:

"إنّ كاتب الوحي للصديقة الزهراء كان أمير المؤمنين عليه السلام كما أنّه عليه السلام كان كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وآله (الذي انتهى ذلك الوحي بارتحال رسول الله صلى الله عليه وآله) إنّه ليس من السهل مجيءُ جبرئيل للإنسان. ولا يُتَخيل أنّ جبرئيل يأتي لكلّ إنسان وأنّ هذا الأمر من الأمور الممكنة! إنّ هذا الأمر يفتقر إلى تناسب وانسجام بين روح من يتوجه إليه جبرئيل وبين مقام جبرئيل الذي هوالروح الأعظم. وليس هناك فرق بين القولين سواء قلنا أنّ تنزيل جبرئيل إنّما هو بواسطة الروح الأعظم للولي أو النبي، وأنّه هو الذي ينزّل جبرئيل أم قلنا بأنّ الله سبحانه يأمره بأن يأتي ويُخبر عنه سبحانه فعلى القولين: الأوّل الذي هو قول بعض من أهل النظر أو الثاني الذي قال به بعض أهل الظاهر، فلولا التناسب بين روح من يأتي إليه جبرئيل وبين

جبرئيل نفسه الذي هوالروح الأعظم، لا يمكن هذا المعنى أعني (إتيان جبرئيل إليه) وهذا التناسب كان في الدرجة الأولى بين جبرئيل الذي هوالروح الأعظم والأنبياء وهم الرسول الأكرم محمّد ﷺ وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وأمثالهم، ولم يتحقق هذا الأمر بالنسبة إلى الآخرين، حتّى بالنسبة إلى الأئمّة عليهم السلام أنا لم أعثر على مستند يدلُّ على نزول جبرئيل عليهم بنفس المستوى الذي وصلت إليه الزهراء عليها السلام هذا الأمر كان منحصراً بالزهراء عليها السلام لا غيرها. . . وأمّا فيما يتعلّق بالمسائل التّي كان جبرئيل يبيّن لها، فربّما كانت إحدى تلك المسائل المبيّنة لها من قِبَل جبرئيل، تتعلّق بما يحدث في عهدِ واحدٍ من ذريتها العظيمة أعني صاحب الأمر عليه السلام، ومسائل إيران كان من ضمنها، نحن لا نعلم، ربّما كان ذلك وعلى أيّ حال، إنّني أرى هذه الفضيلة أسمى فضائلها (مع أنّ جميع فضائلها عظيمة) وهي الفضيلة التي لم تحصل لغير الطبقة العالية من الأنبياء عليهم السلام (لا كلّهم) وبعض الأولياء الذين كانوا في رتبة تلك الطبقة من الأنبياء عليهم السلام. وأمّا قضيّة مراودة جبرئيل في الخمس والسبعين يوماً فلم يتحقق لأحدٍ حتّى الآن وهذه من الفضائل المختصّة بالصدّيقة سلام الله عليها "[٥].

فاطمة ليلة القدر

«عن أبي عبد الله عليه السلام إنه قال: إنا أنزلناه في ليله القدر، الليلة فاطمة والقدر الله فمن عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر وإنما سميت فاطمة، لأن الخلق فطموا عن معرفتها»[٦].

أقول:

ومن خلال هذا الحديث نستفيد أموراً كثيرةً:

فكما أن المعنى الحقيقي لليلة القدر غير معروف للخلق، كذلك الزهراء عليها السلام فهي مجهولة للخلق أجمع أعمّ من الناس والملائكة والجن، فهي باطن تلك الليلة المباركة ولا يعرفها إلاّ المعصومون عليهم السلام:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾[٧].

كذلك من حيث موضع قبرها فهناك ثلاثة احتمالات في ذلك:

فربَّما يكون القبر في البيت وربَّما في البقيع وربَّما بين المنبر وقبر الرسول حيث ورد أنَّ هناك روضة من رياض الجنَّة، إشارةً إلى قبرها سلام الله عليها.

والليلة أيضاً مردَّدةٌ بين ليال ثلاث، وكما أنَّ الليل هومظهر الستر والعفاف فهي سلام الله عليها كذلك.

والأهمّ من ذلك:

أنَّه كما أنَّ ليلة القدر ظرف زماني قد احتمل كلَّ ما أنزله الله تعالى الذي كان في الكتاب المكنون في كتابه الكريم، ففاطمة ظرف مكاني قد احتمل كلَّ ما أنزله الله تعالى، فهي سلام الله عليها محلٌّ لتجلي الاسم الأعظم ومن هنا نسبت إلى الله تعالى مباشرةً من غير واسطة وهذا يدلُّ على خصوصيَّة في خلقها فالله الفاطرُ خلق فاطمة.

ومن هنا نعرف ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«فمن عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر»[٨].

فلا يمكن إدراك تلك الليلة المباركة والوصول إلى فضائلها إلا بمعرفة فاطمة عليها السلام.

وفي حديث آخر في الكافي:

«الكافي أحمد بن مهران وعلى بن إبراهيم جميعا عن محمد بن على عن الحسن بن راشد عن يعقوب بن جعفر بن إبراهيم قال: كنت عند أبي الحسن موسى عليه السلام إذ أتاه رجل نصراني، فسأله عن مسائل فكان فيما سأله أن قال له: أخبرني عن حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم، ما تفسيرها في الباطن ؟ فقال: ... وأمّا الليلة ففاطمة عليها السلام»[٩].

فاطمة محدثة

فعلى ضوء ما قلنا نعرف السرّ في إطلاق المحدَّثة عليها، وفي هذا المجال هناك أحاديث كثيرة دالة على أنَّ الملائكة كانت تهبط عليها من السماء وتناديها فتحدِّثهم ويحدِّثونها، كما ورد في كتاب علل الشرائع للصدوق رضوان الله تعالى عليه:

«بإسناده حدثنا علي بن جعفر الحضرمي بمصر منذ ثلاثين سنة قال: حدثنا سليمان قال محمد بن أبي بكر لما قرأ: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث قلت: وهل تحدث الملائكة إلا الأنبياء قال: مريم لم تكن نبية وكانت محدثة وأم موسى بن عمران كانت محدثة ولم

تكن نبية وكانت محدثة وسارة امرأة إبراهيم قد عاينت الملائكة فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ولم تكن نبية وفاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت محدثة ولم تكن نبية»[١٠].

أهمية المصحف

لمعرفة أهمية مصحف الزهراء عليها السلام يكفي التأمُّل في الحديث التالي المنقول في كتاب الكافي الشريف للكليني رضوان الله تعالى عليه:

«أحمد بن محمد، ومحمد بن الحسين، عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن أبي عبيدة قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر، فقال: هو جلد ثور مملوء علماً، فقال له: ما الجامعة؟ قال: تلك صحيفة طولها سبعون ذراعا، في عرض الأديم، مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضيَّة إلا وفيها، حتى أرش الخدش، قال له: فمصحف فاطمة، فسكت طويلاً، ثم قال: إنكم لتبحثون عمّا تريدون وعمّا لا تريدون، إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها حزنٌ شديد على أبيها، وكان جبرئيل يأتيها، فيُحسن عزاءَها على أبيها، ويُطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخُبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»[١١].

أقول:

إنَّ الإمام الصادق عليه السلام يمهِّد لحماد بن عثمان، ليسأل عن مصحف فاطمة عليها السلام، فهو سأل عن حقيقة المصحف، بعد ما سمع بعض الشيء عن

الجفر والجامعة، وتلاحظ أنَّه عليه السلام في بيان الجفر قال «**جلد ثور مملوء علماً**» ، ومن الواضح أنَّ الإتيان بالنكرة المنوَّنة، أعني «**علماً**» يدلّ على عظمة ذلك العلم، كما أنَّ كلمة تلك في قوله عليه السلام «**تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً**» كذلك.

ورغم أنَّ الجامعة فيها كلُّ ما يحتاج إليها الناس، حتى أنَّها تشتمل على جميع الأحكام الشرعية، بل جميع القضايا «**وليست من قضية إلا وفيها**» حتى أرش الخدش، ولكن بمجرد أن سأل عن مصحف الزهراء، واجه موقفاً غريباً من الإمام عليه السلام حيث «**سكت طويلاً**» وهذا السكوت، إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على عظمة الأمر وأهميته «**ثم قال: إنكم لتبحثون عمّا تريدون وعمّا لا تريدون**» وعندما يجيب عليه السلام عن سؤال الراوي، يبيِّن له الأمر بنحوٍ مجمل لأنَّه وغيره من الناس لا يمكنهم تحمُّل حقيقة المصحف.

نزول الملك

الأرضية التي من أجلها جاء الملَك[١٢]، أعني الروح الأمين إلى الصديقة فاطمة سلام الله عليها، وحدَّثها، هي شدَّة حزنها على أبيها، صلوات الله وسلامه عليه، فقد ورد في حديث الكافي:

«... **عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنَّ فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله، صلى الله عليه وآله، خمسة وسبعين يوما، وكان دخلها حزنٌ شديدٌ على أبيها** ...»[١٣].

وفي حديث بصائر الدرجات:

«إن الله‌تباك وتعالى لما قبض نبيه، ﷺ، دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يــعلمه إلا الله‌عزّ وجل، فأرسل إليها ملكا ...».

وكان حزنها من وفاة أبيها، قد وصل إلى غايةٍ من الشدَّة، بحيث لا يعلمه إلاّ الله‌عزّ وجلَّ.

من هنا يمكننا معرفة عمق معاني كثير من الأحاديث التي وردت في شأنها، وفي شأن أبيها، صلوات الله‌وسلامه عليهما، وأيضاً في العلاقة المتواجدة بين الأب والبنت، وبينهما وبين الله.

فمنها ما روى العلامّة المجلسي:

«قال: خرج النبي، ﷺ، وهوآخذ بيد فاطمة، عليها السلام، فقال: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها، فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني، وهي قلبي، وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»(١٤).

وفي الحديث المنقول:

«عن جعفر بن محمد، عليهما السلام، قال: قال رسول الله، ﷺ: إن الله‌ليغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها»(١٥).

«وعنه عليه السلام، قال: قال رسول الله، ﷺ: إن فاطمة شجنة مني، يسخطني ما أسخطها، ويرضيني ما أرضاها»(١٦).

أقول:

هذه العلاقة القويمة، قد انثلمت بعد وفاة الرسول الاكرم ﷺ، على مستوى عالم المُلك والدنيا. ففقدانه، صلوات الله عليه وآله للزهراء سلام الله‌عليها، يعني فقدان كلِّ شيء، فمن الطبيعي أن يشتدُّ حزنها، بحيث لا يعلمه إلاّ الله.

فماذا حصل بعد ا لحزن ؟

الأحاديث تدلُّ على أنَّ جبرئيل كان يأتيها، كما في حديث الكافي، وفي الحديث المنقول عن بصائر الدرجات:

«دخل على فاطمة من وفاته، من الحزن ما لا يعلمه إلا الله، عزّ وجل فأرسل إليها ملكا...»

ولا يخفى عليك، ما يستفاد من كلمة الفاء، في **فأرسل إليها** مَلكاً، حيث تدلُّ على أنَّ الملك إنَّما أُرسل إليها، فلأجلِ حُزنها على أبيها، وحيث أنَّ الحزن لم يكن منقطعاً، بل كان مستمرّاً طوال خمسة وسبعين يوماً، فكان جبرئيل يتراود إليها بنحومستمرٍّ، كما في حديث الكافي الذي مرّ:

«مكثت بعد رسول الله، ﷺ، خمسة وسبعين يوما، وكان دخلها حزنٌ شديدٌ على أبيها، وكان جبرئيل، عليه السلام، يأتيها، فيُحسن عزاءها على أبيها، ويُطيب نفسَها، ويُخبرها عن أبيها، ومكانِه، ويُخبرها بما يكون بعدها في ذرِّيتِها»(١٧).

تأمّل في كلام الإمام الخميني ﷺ حيث شرح الرواية بقوله:

"**ظاهر الرواية هو، أنّه كانت مراودة، أي ذهاب وإياب كثير لجبرئيل الأمين وذلك فى خمس وسبعين يوماً، ولا أظنّ حدوث هذا الأمر لغير الطبقة الأولى من الأنبياء العظام، بحيث يتراود إليهم جبرئيل الأمين في خمس وسبعين يوماً**"

لذلك، نشاهد الإمام ﷺ، قد استخدم الأفعال المضارعة، الدالة على الاستمرار، وهي (**يأتيها فيُحسن... ويُطيب... يُخبرها**).

مهمة جبرئيل

كانت مهمَّة المَلك المرسل إليها هي:

١ - أن يحسن عزاء الزهراء ﷺ، على أبيها وليسلِّي عنها غمَّها.

٢ - أن يطيب نفسها ﷺ.

٣ - أن يخبرها عن منزلة الرسول ﷺ، وشأنه الرفيع، ومقامه العلي، ومكانته العظيمة عند الله عزّ وجلّ.

٤ - أن يخبرها ﷺ عمّا يكون بعدها في ذرِّيتها.

وفي الحقيقة، الذي يُسلِّي غمَّ الزهراء ويطيب نفسها، هوالله سبحانه وتعالى وهوالذي يتأذَى لأذاها، كما يتأذَّى لأذى رسوله، لأنَّ هناك سراً مستودعاً فيهما، لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى، والأئمة المعصومون، ﷺ. وفي الحديث:

«**وخلفت فاطمة عليها السلام مصحفاً، ما هو قرآن، ولكنه كلام من كلام الله، أنزله عليها، إملاء رسول الله، وخط علي عليه السلام**»[١٨].

ولذا سمِّيت فاطمة، فهي مظهر فاطر السموات والأرض. وحيث أن الملك المرسل من قبَله تعالى يحدِّثها، سمِّيت المحدَّثة، كما مرَّ أنه كان يخبرها عمّا سيحدث بعدها في ذريّتها من المصائب والبلايا، والأهم من ذلك ما ستكتسبها الذرية، من انتصارات عظيمة، ونجاح كبير في عصر الغيبة، ومن ثمّ ظهور ابنها المهدي المنتظر، عجلّ الله‌تعالى فرجه الشريف، كما أشار إلى ذلك الإمام قدَّس الله‌نفسه في بعضِ خُطبه.

علي عليه السلام كاتب المصحف

المستفاد من الأحاديث الشريفة التي مرَّ ذكرها أنَّ الزهراء، سلام الله‌عليها، كانت تحسُّ بالملك، وتسمع صوته، ولم تكن تشاهده، فبمجرَّد أن حصل ذلك، شكت إلى أمير المؤمنين عليٍ عليه السلام، حيث لم تكن تتوقَّع هذا الأمر بهذه الصورة المستمرَّة.

ويستفاد أيضاً، أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام اكتشف بالفعل، أنَّ المُحدِّث مع الزهراء عليها السلام، هوجبرئيل الأمين، كيف وهوالذي كان يلازم رسول الله‌في جميع حالاته، فكان مأنوساً بصوت جبرئيل.

فهوسلام الله‌عليه، كان صاحب فكرة كتابة المصحف، حيث يسمع صوت روح الأمين، فيكتب كلما يسمعه، إلى أن اجتمع في مصحف متكامل، وهومصحف الزهراء عليها السلام.

ولا يخفى عليك، أنّه ليس من السهل كتابة ما يلقيه جبرئيل، بل كان ذلك ضمن العلوم الخاصَّة الإلهيَّة التي امتاز بها أمير المؤمنين عليه السلام، فهوالذي كتب من قبل ما أملاه رسول الله عليه، وهوالذي جمعَ القرآن الكريم في المصحف الشريف كما هوثابت في محلِّه.

محتوى المصحف

إنَّ المصحف يشتمل على أمورٍ كثيرةٍ تتلخص في كلمة واحدة وهي: استيعابه لجميع الحوادث الخطيرة الآتية، خصوصاً ما سيواجه ذريتُها، من المصائب والبلايا، وأيضاً الانتصارات، ويشتمل على أسماء جميع الملوك والحكّام إلى يوم القيامة، كما ورد في الحديث:

«**ما من نبي ولا وصي ولا ملك إلا هوفي كتاب عندي يعني مصحف فاطمة**»(١٩).

ويحتوى على أمور ترجع إلى شخص رسول الله صلى الله عليه وآله، وأيضاً يشتمل على وصيتها سلام الله عليها.

«**ابن هاشم عن يحيى بن أبي عمران عن يونس عن رجل عن سليمان بن خالد قال: قال أبوعبد الله عليه السلام . . فان فيه وصية فاطمة عليها السلام ...**»(٢٠).

ومن الطبيعي أنَّ الوصيَّة تشتمل على أمور خاصَّة، تتعلَّق بحزنها عليها السلام، وبالمصائب الواردة عليها من أعدائها، ليُنفِّذها ابنها الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عجل الله فرجه، لأنَّه هو الإمام مبسوط اليد، الذي به يملأ الله الارض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً.

الأئمة عليهم السلام ومصحف فاطمة

كان الإمام الصادق عليه السلام، يؤكِّد دائماً على علوم أهل البيت عليهم السلام، ففي الحديث أنَّه "**كان يقول**" أنَّ علمهم عليهم السلام، "**غابر ومزبور ونكتٌ في القلوب ونقر في الأسماع**" وأنَّهم يمتلكون "**الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، والجامعة**" فهم عليهم السلام رغم ارتباطهم وسماعهم صوت الملائكة ورغم تبعيّتهم لمصحف الإمام عليٍّ الذي هوالجامعة المشتملة على جميع الأحكام حتى أرش الخدش ورغم معرفتهم بعلم الجفر الذي يشتمل على "**علم ما يحتاج إليها الناس إلى يوم القيامة من حلال وحرام**" إلاّ أنَّهم كانوا يعتمدون في فهم الحوادث الخطيرة على مصحف فاطمة عليها السلام كما ورد في الحديث "**فنحن نتبع ما فيها فلا نعدوها**" حيث يشتمل على الحوادث الخارجية جميعاً. وأيضاً أسماء الملوك إلى يوم القيامة، ففي الحديث:

«**سئل عن محمد بن عبد اللهبن الحسن فقال عليه السلام: ما من نبي ولا وصى ولا ملك إلاّ وهوفي كتاب عندي. يعنى مصحف فاطمة، واللهما لمحمد بن عبد اللهفيه اسم**»[٢١].

وفي حديثٍ آخر:

«**عن الوليد بن صبيح قال: قال لي أبوعبد اللهعليه السلام: يا وليد إنّي نظرت في مصحف فاطمة عليها السلام، فلم أجد لبني فلان فيها إلاّ كغبار النعل**»[٢٢].

وعند التأمُّل في جملة **إنِّي نظرتُ** نعرف أنَّهم عليهم السلام كانوا يدقِّقون النظر في مصحف أمهم فاطمة عليها السلام، عند طروء حادثة من الحوادث المهمَّة، أوظهور من يدَّعي المُلك وإمامة المسلمين، بل قد وصل المصحف إلى درجة من الرفعة والسموّ بحيث صار مصدر سرورهم واستبشارهم، كما يستفاد من جملة **قرت عينه** في الحديث التالي:

«**عن فضيل بن عثمان عن الحذاء قال: قال لي أبوجعفر عليه السلام: يا أبا عبيدة من كان عنده سيف رسول الله صلى الله عليه وآله ودرعه ورايتُه المغلبة ومصحف فاطمة عليها السلام قرَّتْ عينُه**»(٢٣).

هل مصحف فاطمة هو القرآن؟

إنَّ الكثير من الناس كانوا ولا زالوا يتصوَّرون أنَّ المصحف يشتمل على الآيات القرآنية الشريفة، أوأنَّ هناك قرآناً آخر عند الشيعة، كما يزعم بعضُ الجُهال من العامَّة. ولكنَّ الواقع هوخلاف ذلك، فإنَّ المصحف لا يشتمل حتى على آية واحدة من آيات القرآن الكريم، كما هوالمستفاد من الأحديث الكثيرة، كما أنَّه ليس من قبيل القرآن ولا يشبهه من ناحية المحتوى أصلاً، فهومن مقولةٍ أخرى، فأحاديثنا صريحةٌ في ذلك فقد ورد في حديث:

«**...عن على بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام...ما فيه آيةٌ من القرآن**»(٢٤).

وفي أحاديث أخر: «... **عن علي بن الحسين عن أبي عبد الله عليه السلام.. عندنا مصحف فاطمة، أما والله ما فيه حرفٌ من القرآن**»(٢٥).

«**عبد الله بن جعفر عن موسى بن جعفر عن الوشاء عن أبي حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مصحف فاطمة عليها السلام ما فيه شيء من كتاب الله...**»(٢٦).

«**عن عنبسة بن مصعب قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام.. ومصحف فاطمة أما والله ما ازعم انه قرآن**»(٢٧).

عند ملاحظة الأحاديث تعرف أنَّ الشبهة كانت منتشرة أيضاً في عصر الأئمة عليهم السلام، ولهذا نراهم يستنكرون بكلِّ حزم وجدّ، ويتوسَّلون بالقسم لنفي ذلك، غير أنَّ هناك حديثا يدلّ على أنّ المصحف:

«**فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات**»(٢٨).

والظاهر أنّ المقصود هو من ناحية الكميّة وحجم المعلومات، لا من حيث المحتوى.

ثمَّ لا يخفى عليك ما في كلمة **قرآنكم** من معانٍ فتأمَّل جيِّداً.

وأيضاً:

المستفاد من أحاديث كثيرة أنَّ مصحف الزهراء عليها السلام ليس فيه شيء من الحلال والحرام أصلاً، ومن تلك الأحاديث قوله عليه السلام:

«**أما إنَّه ليس من الحلال والحرام**»(٢٩).

علامات الإمام

هناك علائم ذكرت كدليل لإمامة الإمام عليه السلام، تتلخَّص في الأمور التالية:

صحيفة فيها أسماء شيعتهم إلى يوم القيامة.

صحيفة فيها أسماء أعدائهم إلى يوم القيامة.

تكون عنده الجامعة، وهي مصحف عليٍّ عليه السلام.

يكون عنده الجفر الأكبر والأصفر.

يكون عنده مصحف فاطمة عليها السلام.

من خلال ذلك نعرف أنَّ مصحف فاطمة عليها السلام مع صِغر حجمه، يشتمل على رموز كثيرة ومحاسبات دقيقة، يمكن من خلال تلك المحاسبات الوصول إلى الحقائق، فهوكعلم الجفر الذي هوعلم الحروف والأعداد.

وأمّا مصحف عليٍّ عليه السلام فيختلف تماماً، ولأهميته نفرد له عنواناً مستقلاً فنقول:

مصحف علي (الجامعة)

إنَّ هناك أحاديث تبيِّن مصحفاً آخر، هومصحف عليٍّ عليه السلام ومن تلك الأحاديث:

«محمد بن عيسى عن الأهوازي عن فضالة عن قاسم بن بريد عن محمد عن أحدهما عليهما السلام قال: إن عندنا صحيفة من كتاب على عليه السلام، أومصحف على عليه السلام طولها سبعون ذراعاً»(٣٠).

وعند استقراء الأخبار الواردة في هذا الباب نصل إلى النتيجة الآتية وهي أنَّ:

«مصحف عليٍ عليه السلام هونفس الجامعة المذكورة في الأحاديث السابقة، وهي الصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً، وفيها كلُّ ما يحتاج إليه الناس».

وهذا المصحف يمتاز بالأمور التالية:

١ - انَّه بإملاء رسول اللهمحمَّد صلى الله عليه وآله، وخطِّ عليٍ عليه السلام بيده المباركة:

«إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط على عليه السلام»[٣١].

٢ - يحتوى على جميع الأحكام من الحلال والحرام، وأحكام الإرث والحدود، وفي هذا المجال وردت أحاديث كثيرة إليك بعض المقاطع منها:

«فيها الحلال والحرام والفرائض»[٣٢] **«كلُّ شيء حتى ارش الخدش»**[٣٣] **«فيها كل ما يُحتاج إليه حتى فيها ارش الخدش وقام بظفْره»**[٣٤] **«حتى أن فيه ارش الخدش، والجلدة، ونصف الجلدة»**[٣٥] **«وليست من قضية إلا وفيها»**.

وقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام نموذجاً من الأحكام الواردة في مصحف عليٍّ عليه السلام حيث قال:

«فيه أنَّ النساء ليس لهن من عقار الرجل إذا هوتوفِّى عنها شئ»[٣٦].

٣ - الأحكام المذكورة في الجامعة صريحة واضحة غير مبهمة، بخلاف مصحف الزهراء، فإنَّها رموز علمية لا تُعرف إلاّ بالتأمُّل والنظر كما مرَّ، ولذلك صار طول الجامعة سبعون ذراعاً، وربَّما هوإشارة إلى مدى سعتها، بحيث أنها وضعت في بيتٍ كبيرٍ، كما يصرِّح بذلك حديث حمران بن أعين:

«**عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أشار إلى بيتٍ كبير، وقال: يا حمران، إنَّ في هذا البيت صحيفة طولها سبعون ذراعا، بخط عليٍّ عليه السلام، وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، لوولينا الناس لحكمنا بما أنزل الله، لم نعدُ ما في هذه الصحيفة**»[٣٧].

٤ - الجامعة كانت تُلَفُّ، وكانت من السُمك وكأنَّها فخذ فالج.

فما هوالمقصود من فخذ الفالج ؟

هناك احتمالان:

ألف: أنَّ الجامعة كانت ضخمة للغاية وكأنَّها فخذ الفالج، وهوعلى ما بيَّنه اللغويون: الجملُ الضخمُ ذوالسنامين يُحمل من السند للفحل.

وربَّما يُقوِّي هذا الاحتمال وجود الصحيفة في بيت كبير، وأنَّ طولها سبعون ذراعاً، وغير ذلك من الشواهد المؤيِّدة، وإن كانت هناك شواهد أخرى تُضَعِّف هذا الاحتمال، ومنها أنَّهم عليهم السلام، كانوا يحملونها وهي مطويَّة كما ورد في الحديث الآتي:

«محمد بن الحسين عن جعفر بن بشير عن الحسين عن أبي مخلد عن عبد الملك قال: دعا أبوجعفر بكتاب علي فجاء به جعفر، مثل فخذ الرجل مطويّ»(٣٨).

فما هوالرجل ؟ هل هوبكسر الراء أوبفتحها ؟ إذا كان بفتحها، فيكون المراد من الفالج الاحتمال الثاني وهو:

ب: المبتلى بالفَالج، كما ذكر اللغويون في معنى الكلمة فقالوا:

الفالج بكسر اللام، استرخاء عام لأحد شقّي البدن طولا من الرأس إلى القدم.

فحينئذ قد استعمل اسم الفاعل أعنى الفالج وقُصد منه اسم المفعول، وهوالمفلوجٍ، وهذا النوع من الاستعمال متداول بكثرة في اللغة العربيَّة، وعليه تكون الصحيفة حين اللف صغيرة كفخذ الفالج، وذلك لرقَّة الجلد الذي كُتبت فيه.

وهنا سوف يثار سؤال ينبغي الإجابة عليه وهو:

لماذا خُصِّص له بيتٌ كبير ؟

وفي الجواب أقول:

أوَّلاً: هذا الإشكال يرد حتَّى على الاحتمال الأوَّل، لأنَّ فخذ الجمل مهما كبُر لا يستوعب بيتاً.

ثانياً: ربَّما كان أئمتنا عليهم السلام يفتحون الجامعة وينشرونها في ذلك البيت حفاظاً عليها من التلف، وشاهد ذلك الحديث التالي:

«أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي جعفر قال: أخرج إلي أبوجعفر عليه السلام صحيفةً فيها الحلال والحرام والفرائض، قلت: ما هذه ؟ قال: هذه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وخطَّهُ عليٌّ عليه السلام بيده، قال: قلت: فما تُبلى ! قال: فما يُبليها. قلت: وما تُدرسُ ! قال: وما يُدرِسُها. قال: هي الجامعة أومن الجامعة»(٣٩).

تلاحظ أنَّ أبا بصير يسأل عن أنَّ الصحيفة هل تتلف وتنمحي، وهذا السؤال يُدلّنا على أنَّ هذا الأمرَ كان مُحتملاً، حيث أنَّ الصحيفة كانت مكتوبة على أديم، كما في حديث ابن رئاب:

«عن أبي عبيدة قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر فقال: هوجلد ثور مملوء علماً فقال له: ما الجامعة ؟ قال: تلك صحيفة طولها سبعون ذراعا، في عرض الأديم مثل فخذ الفالج»(٤٠).

يقول العلاّمة المجلسي: "الأديم الجلد أوأحمرُه أومدْبُوغة"(٤١).

وجاء في الحديث حول الجفر:

«عندنا الجفر، وهوأديم عكاظي قد كُتب فيه»(٤٢).

وهوشاهد على ما قاله اللغويون من أنَّ الأديم هوالجلد، فكانوا يكتبون على الجلود، ومن الواضح أنَّ الجلد لوأصابته حرارة شديدة يلتصق بعضه ببعضٍ فيتلف، إلاّ أن يُنشر.

٥ - إنَّ في مصحف علي عليه السلام ما أنزل اللهمن الأحكام والقضايا، كما في حديث حمران:

«لوولّينا الناس لحكمنا بما أنزل الله، لم نعدُ ما في هذه الصحيفة»(٤٣).

وفي الختام نبتهل إلى الباري جلّ شأنه ونتضرَّع إليه وندعوه ليُعجِّل في فرج قرة أعيننا الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر -روحي لتراب مقدمه الفداء- وأن يجعلنا من أنصاره والذابين عنه والمستشهدين بين يديه، الآخذين بثأر الصدِّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها أفضل صلوات الله وملائكته، وثأر ابنها سيد الشهداء أبي عبد اللهالحسين عليه السلام. والحمد لله ربِّ العالمين.

المراجع والتوضيحات:

١ - مصباح المتجهد ص٧١١. بحار الأنوار، ج١٠٠، ص١٩٥.

٢ - صحيفة النور ج٧ ص٢٧.

٣ - صحيفة النور، ج١٦، ص١٢٥.

٤ - بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٤٥.

٥ - صحيفة النور، ج ١٩، ص٢٧٨.

٦ - تفسير الفرات، ص٥٨١. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٦٥.

٧ - القدر ٢.

٨ - تفسير الفرات ص٥٨١. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٦٥.

٩ - بحار الأنوار، ج٢٤، ص٣١٩.

١٠ - المناقب، ج ٣ ص٣٣٦. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٧٩.

١١ - بحار الأنوار، ج ٢٦، ص٤١.

١٢ - ولأن جاء في بعض الأخبار (إملاء رسول اللهوخط علي) فالظاهر أنَّ المقصود من رسول اللههوجبرئيل الامين جمعاً بينه وبين الأخبار الكثيرة الأخرى وقد أطلقت كلمة الرسول على جبرئيل في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة قال تعالى (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا) مريم ١٨، ١٩ ولهذا لم تأت حرف (ص) المختصَّة برسول اللهفي تلك الرواية، والجدير بالذكر ما ورد في نفس الرواية (وخلفت فاطمة ﷺ مصحفاً ما هوقرآن ولكنه كلام من كلام اللهأنزله عليها إملاء رسول اللهوخط علي ﷺ). راجع بحار الأنوار ج٢٦، ص٤١، الرواية٧٣، الباب١.

١٣ - الخرائج ص٥٢٦. وبحار الأنوار ج٢٢، ص٥٤٥.

١٤ - كشف الغمة ج ١ ص٤٦٦ . بحار الأنوار، ج ٣٤، ص٥٤ . نقلا عن كتاب لأبي إسحاق الثعلبي عن مجاهد

١٥ - كشف الغمة، ج ١، ص٤٦٧ . بحار الأنوار ج٣٤، ص٥٤ .

١٦ - كشف الغمة ج ١ ص٤٦٧ . بحار الأنوار، ج٣٤، ص٥٤ .

١٧ - الخرائج ص٥٢٦ . بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٤٥ .

١٨ - بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤١ .

١٩ - المناقب ج٤، ص٢٤٩ . بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢ باختلاف .

٢٠ - بصائر الدرجات، ص١٥٧ . بحار الأنوار ج٢٦، ص٤٣ .

٢١ - المناقب، ج ٤، ص٢٤٩ . بحار الأنوار ج٤٧، ص٣٢ .

٢٢ - بصائر الدرجات، ص١٦١ . بحار الأنوار، ج٢٦ . ص٤٨ .

٢٣ - بصائر الدرجات، ص١٨٦ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٢١١ .

٢٤ - بصائر الدرجات، ص١٥٦ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٢ .

٢٥ - بصائر الدرجات، ص١٦١ . بحار الأنوار، ج٢٦ ص٤٦ .

٢٦ - بصائر الدرجات، ص١٥٩ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٨ .

٢٧ - بصائر الدرجات، ص١٥٤ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٣ .

٢٨ - بصائر الدرجات، ص١٥١ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٨ .

٢٩ - بصائر الدرجات، ص١٥٧ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٤ .

٣٠ - بصائر الدرجات، ص١٤٦ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٣ .

٣١ - بصائر الدرجات، ص١٤٢ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٨ .

٣٢ - بصائر الدرجات، ص١٤٤ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٢٣ .

٣٣ - بصائر الدرجات، ص١٥٥ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٨ .

٣٤ - بصائر الدرجات، ص١٥١ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤١ .

٣٥ - الارشاد، ج ٢، ص١٨٦ . بحار الانوار، ج٢٦، ص١٨ .

٣٦ - بصائر الدرجات، ص١٦٥ . بحار الانوار، ج١٠٤ ص٣٥٢ .

٣٧ - بصائر الدرجات، ص١٤٣ . بحار الانوار، ج٢٦، ص ٢٢ .

٣٨ - بصائر الدرجات، ص١٦٥ . بحار الانوار، ج١٠٤، ص٣٥٢ .

٣٩ - بصائر الدرجات، ص١٤٤ . بحار الانوار، ج٢٦، ص٢٣ .

٤٠ - بصائر الدرجات، ص١٤٤ . بحار الانوار، ج٢٦، ص٤١ .

٤١ - بصائر الدرجات، ص١٥٣ . بحار الانوار، ج٢٦، ص٢٢ .

٤٢ - بصائر الدرجات، ص١٦٠ . بحار الانوار، ج٢٦، ص٤٨ .

٤٣ - بصائر الدرجات، ص١٤٣ . بحار الانوار، ج٢٦، ص٢٢ .

فهرس

تقديم ٧
مقدمة المؤلف ١١
محال مشيئة الله ١٧
إفاضة الوجود من الله بالإرادة ١٧
النور نورٌ بالوجود ١٨
نطاق نور الوجود ١٨
هو الأول والآخر ١٨
نور الوجود والشعور ١٩
تسبيح كافة الموجودات ١٩
الإرادة من مظاهر الوجود ٢٠
إرادة الله عين فعله ٢٠
لا زوال لنور الوجود ٢١
الواحد الأحد ٢١
خلق الأشياء بالمشيئة ٢١
أول ماخلق الله ٢١
عالم الأمر ٢٢
بطلان التسلسل ٢٢
مقام المشيئة مقام الأمر لا الخلق ٢٣
الإرادة النافذة للحق ٢٤
كنت نبياً وآدم بين الماء والطين ٢٤
عالم الأظلَّة ٢٤

ربط الأرض بالسماء ٢٤
التسانخ بين العلَّة والمعلول ٢٤
لولاك لما خلقت الأفلاك ٢٥
أول النبيين ميثاقاً ٢٥
المراجع والتوضيحات ٣٧
نور على نور ٣٣
النظام الأحسن ٣٣
وجه الله ٣٣
واسطة الفيض ٣٤
كلام صدر المتأهلين ﷺ ٣٥
القول الثقيل ٣٦
لاشرقيَّة ولاغربيَّة ٣٧
المصباح هو المصطفى ﷺ ٣٨
النور الذي أنزلنا ٣٩
آراء القوم في تفسير النور ٤٠
التوسُّل ٤١
عصر الظهور ٤١
أجلى الأسماء الإلهية ٤٢
بيت النبوَّة والإمامة ٤٣
منزل فاطمة ﷺ ٤٣
قتادة عند الإمام الباقر ﷺ ٤٤
الأرواح اليقظة ٤٥
النور واليقظة للروح والبدن ٤٥

روح الحجَّة متعلق بالملأ الأعلى ٤٦
الرَجُل كلُّ الرَجُل ٤٧
المراجع والتوضيحات ٤٩
كلمات الله ٥٣
الكلمات التدوينية ٥٣
الكلمات التكوينية ٥٤
أصحاب الكساء ٥٥
المسيح عليه السلام كلمة الله ٥٦
الكلمة التامة ٥٧
ماتبصرون ومالاتبصرون ٥٨
ينظرون ولايبصرون ٥٩
الكتاب التكويني والكتاب التدويني ٦٠
فاتحة الكتاب التكويني ٦١
فاتحة الكتاب التدويني ٦٢
كلُّنا محمَّد ٦٣
حرف الباء ٦٤
متعلق الجار والمجرور ٦٤
إرتباط البسملة بالسورة ٦٥
أهمِّية نقطة الباء ٦٦
أنا النقطة ٦٦
أول ماخلق الله القلم ٦٧
الغيب والشهود ٦٨
أول ماخلق الله نوري ٦٩

الإمام المبين ٦٩
القرآن الناطق ٧٠
معرفة الإنسان الكامل ٧٠
كلام ملا صدرا في معرفة النفس ٧٠
الكنز المخفي ٧١
وفي أنفسكم أفلا تبصرون ٧٢
من رآني فقد رأي الحق ٧٢
المراجع والتوضيحات ٧٣
أولياء الله ٧٩
الكمال المطلق هو الله ٧٩
الظاهر والباطن هو الله ٨٠
نور ليس كمثله نور ٨٢
الفيّاض المطلق ٨٣
النظام الطولي ٨٤
فأما الزبد فيذهب جفاءً ٨٥
الولاية التكوينية للإنسان الكامل ٨٦
بيدك الخير ٨٧
الهداية بالأمر ٨٧
الإسم الأعظم ٨٨
خـــيبر ٨٩
المراجع والتوضيحات ٩١
مرآة ولاية الله ٩٧
أسرار كلمة «الله» ٩٧

إشتقاق الأسماء ٩٩
الولي إسم شامل ٩٩
الولي والرسول ١٠٠
الولاية والحكم والله ١٠١
داود عليه السلام خليفة الله ١٠٢
إمامة إبراهيم عليه السلام ١٠٢
ذبح إسماعيل ١٠٥
واد غير ذي زرع ١٠٥
عصمة الإمام ١٠٦
محمد صلى الله عليه وآله وليٌّ ورسولٌ ١٠٦
لا خيرة للمؤمنين ١٠٧
علي عليه السلام هو الولي ١٠٨
المراجع والتوضيحات ١٠٩
النعيم الإلهي ١١٣
تواتر حديث الغدير ١١٣
صدور حديث الغدير في مواطن أخرى ١١٤
بعض أسناد الحديث في كتب العامة ١١٥
أبو هريرة والغدير ١١٦
ألست بربكم ١١٦
عالم الذر وفلسفة الخلق ١١٧
يا أيها الرسول ١١٨
النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة ١١٩
المنة الإلهية ١٢٠

الإرتباط بين الإمامة والرسالة ١٢١
المستفاد من آية البلاغ ١٢١
البيعـــة ١٢٢
بيعة النساء ١٢٢
لاتقية بعد نزول الآية ١٢٢
والله يعصمك من الناس ١٢٣
لماذا الخوف؟ ١٢٣
أهمية هذا التبليغ ١٢٤
كرهوا ما أنزل الله ١٢٥
ما أنزل الله ١٢٦
لأكلوا من فوقهم ١٢٦
موقع الآية في المصحف ١٢٨
من لطائف القرآن ١٢٨
الآية غير متعلقة بالمحرمات ١٢٩
معنى الكمال والتمام ١٣٠
أهمية الولاية ١٣١
الإشراف على الأمة ١٣٢
مكان الإمام مكان النظام من الخرز ١٣٣
الحبل المتين ١٣٣
النعيم ١٣٤
الولاية أفضل ١٣٥
الوحي التسديدي ١٣٦
أفضل الأنبياء وأفضل الأوصياء ١٣٧

إلا لانبيَّ بعدي ١٣٧
يأس العدو من الدين ١٣٨
علي كفؤ للزهراء ١٣٩
المراجع والتوضيحات ١٤١
أودّاء الله ١٤٧
تعريف العشق ١٤٧
العشق في الشريعة ١٤٨
الفرق بين العشق والعلم ١٤٩
حبُّ الشيء يعمي ويصم ١٥٠
العشق بالكمال المطلق ١٥١
الكمال المطلق هو الله ١٥٣
الشيطان والتزيين ١٥٤
دور الأنبياء والأولياء ١٥٥
هل الدين إلا الحب ١٥٦
تهذيب النفس ١٥٨
سبيل العقل ١٥٩
سبيل العشق والحب ١٦٠
مشيئة الله سبحانه ١٦١
شراب المحبة ١٦٣
العشق بمن يحبه الله هو العشق بالله ١٦٤
تصفية الروح من الشوائب ١٦٥
تطهير النفوس وتزكية القلوب ١٦٦
عشق أبي ذر للرسول ١٦٧

فاتبعوني يحببكم الله ١٦٨
سمات المحبين ١٦٩
المراجع والتوضيحات ١٧١
المطهرون عند الله ١٧٧
شأن نزول آية التطهير ١٧٨
كلام العلامة الطبطبائي ١٨٠
أسلوب الهداية في القرآن ١٨٢
أمثلة قرآنية ١٨٣
الإعلام الحديث ١٨٥
الإنترنت والإعلام ١٨٦
إستغلال المناسبات ١٨٧
أساليب أهل البيت ١٨٨
النبي ينبئ ويحذِّر ١٨٩
القرآن يخبر عن الواقعة ١٩٠
أم سلمة تعاتب عائشة ١٩١
يا نساء النبي ١٩٢
الإخبار بالغيب ١٩٣
متعة الحج ١٩٣
العلاقة بين الصدر والذيل ١٤٩
نساء النبي والعبادة ١٩٤
نساء النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ١٩٥
البيت لابيوتكنَّ ١٩٦
سَدَّ الأبواب إلا بابه ١٩٧

الحصر بإنَّما ١٩٧
الضمير المذكر ١٩٨
الإرادة التكوينية لا التشريعية ١٩٩
ماذا كان يتلى في بيوتهن ٢٠٠
اللطيف الخبير ٢٠١
المطهرون هم مفسروا مكنون القرآن ٢٠٢
المراجع والتوضيحات ٢٠٣
الوسيلة إلى الله ٢٠٩
الإعتقاد بما وراء الطبيعة ٢٠٩
شبهات ٢٠٩
بإذن الله ٢١٠
من هو مشرك ٢١١
التفكيك بين الميت والحي ٢١١
الميزان في التوحيد والشرك ٢١٢
كل شيء بإذن الله ٢١٣
السبيل الأعظم ٢١٤
تفجير العين ٢١٥
آيات دالة على التوسلِّ ٢١٦
تراب سيد الشهداء عليه السلام ٢١٧
المراجع والتوضيحات ٢١٩
ذخيرة الله ٢٢٣
الزهراء عليها السلام في كلام الإمام قدس سره ٢٢٣
الصحيفة الفاطمية في كلام الإمام قدس سره ٢٢٤

فاطمة عليها السلام ليلة القدر ٢٢٥
أهمية المصحف ٢٢٨
نزول الملك ٢٢٩
شأن الزهراء عليها السلام ٢٣٠
ماذا حصل بعد الحزن ؟ ٢٣١
مهمة جبرئيل ٢٣٢
علي عليه السلام كاتب المصحف ٢٣٣
محتوى المصحف ٢٣٤
الأئمة عليهم السلام ومصحف فاطمة ٢٣٥
هل مصحف فاطمة عليها السلام هو القرآن؟ ٢٣٦
هل في مصحف فاطمة عليها السلام شيء من الحلال والحرام ٢٣٧
علامات الإمام ٢٣٨
مصحف علي عليه السلام (الجامعة) ٢٣٨
خصوصيات مصحف علي عليه السلام ٢٣٩
فخذ الفالج ! ٢٤٠
بيتٌ كبيرٌ ! ٢٤١
أديمٌ عكاظي ! ٢٤٢
المراجع والتوضيحات ٢٤٤